مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الفُرْقَانِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الفرقان

أ . د . خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الفرقان

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾

افتتح الله تبارك وتعالى سورة الفرقان بالتعظيم والإجلال والتمجيد لذاته عَزَّ وجل، وبيان عظيم امتنانه على عباده، بأن أنزل القرآن الكريم على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ليتحقق بهذا التنزيل المبارك التعليم والإنذار للناس. فقال عِزَّ وجل ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾

وقد أفادت دلالة كلمة ﴿ تَبَارَكَ ﴾ التعظيم والتقديس والإجلال لذاته سبحانه وتعالى، بما أفاض من الإنعام والخيرات على عباده، ابتداء من الخلق والإيجاد، ثم إرسال الرسل وإنزال الكتب على الرسل عليهم الصلاة والسلام، وخاتم تلك الكتب هو إنزال القرآن العظيم. فتبارك الله عَزَّ وجل الذي أفاض بإنعامه على عباده. قال الفراء رحمه الله تعالى: إن تبارك وتقدس في العربية واحد، ومعناهما العظمة، وقيل المعنى: تبارك عطاؤه، أي: زاد وكثر. وقال العلماء: هذه اللفظة لا تستعمل إلا لله سبحانه وتعالى، ولا تستعمل إلا بلفظ الماضي[1] فتزايد خيره وتكاثر، وعَظُم سبحانه وتعالى في أوصافه وأسمائه وأفعاله وتدبيره وأقواله وتشريعه، وعَلَت عظمته وقدرته وجلاله، وحلت وعَمَّت ودامت بركته وكثر خيره وفضله وإحسانه، فهو رب العالمين الذي له الخلق والأمر. فتقدس وتنزه وتعالى وتعاظم.

فَقد أنعم جَلَّ جلاله على عباده بهذا القرآن العظيم، فله المنة العظيمة بهذا الكتاب المنير، والحجة البالغة لكل العالمين ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ فكان كتاباً فارقاً بين الحق والباطل، والنور والظلام، والهدى والضلالة. فله تبارك وتعالى التعظيم والتبجيل والطاعة على هذا الإنعام، وله

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤/٦٠)

عظيم الثناء والحمد والشكر، فقد كثر خيره وعطاؤه، وبركاته، وجميل تدبيره، وكمال ما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم. وقد نَزَّهَت جملة ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ نَزَّهت ربنا عَزَّ وجل أكمل تنزيه، فهو مُنَزَّه عن كل شبيه ومثيل وشريك بدلالة عظيم وجلالة القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

وسمى الله عَزَّ وجل القرآن الكريم بالفرقان ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ فتبارك الذي أنزل ما فَصَلَ به بين الحق والباطل بأحكامه وتشريعه. ففرق بين الحق والباطل تفريقاً جلياً واضحاً، حتى استنار الحق وضوحاً وبياناً. وأثبت الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن القرآن كتاب مُنَزَّلُ ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ وأنه منه جَلَّ في علاه إلى نبيه صلى الله عليه و سلم ﴿ نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ لتقوم به دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ثم أوضح تبارك وتعالى الهدف والغاية من ذلك ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ فقد أنزله الله تعالى﴿ نَذِيرًا ﴾ منذراً لهم من عقابه، وأليم عذابه إن لم يُوَحْدُّوه ويعبدوه كما أمر، ويُخْلِصُوا العبادة له وحده لا شريك له.

ومن دقائق البيان أن اسم الفعل ﴿ لِيَكُونَ ﴾ مضمر؛ كما قال القرطبي وغيره: أن الاسم فيها مضمر، يعود على ﴿ عَبْدِهِۦ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم، ويجوز أن يعود على ﴿ ٱلْفُرْقَانَ ﴾[1] وبهذا الإضمار شمل الدلالتين المتضافرتين، فالنبي محمد صلى الله عليه وسلم نذير، والقرآن الكريم مشتمل على الإنذار من الكفر والمعاصي، وما أعده الله تعالى من العذاب لمن عصاه. وهذا من غزارة السياق الذي يُظهر الإعجاز البياني في القرآن العظيم. وأفادت كلمة ﴿ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ شمولية الإنس والجن. لأن النبي عليه الصلاة والسلام مرسل إليهما، إي إلى الثقلين: الجن والإنس. فأوضحت الآية الكريمة: ما يستحقه سبحانه وتعالى من التمجيد والثناء، وعظيم ما امتن الله تعالى به على عباده، بهذا النبي وهذا القرآن العظيم. وبيان الهدف من ذلك، بأنه هداية وإنذاراً لمن خالف هداه عَزَّ وجل.

ثم يخبر الله تعالى عن عظيم صفاته، وكمال قدرته، وعظيم ملكه، فيقول عَزَّ في علاه ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/١٣)

﴿ تَقۡدِيرٗا ﴾ فبدأ تبارك وتعالى بالاسم الموصول ﴿ ٱلَّذِي ﴾ لتخصيص الانفراد بالملك وحده، ونفي الولد والشريك في الملك، والانفراد بالخلق والتقدير لما خلق ﴿ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ فإن السماوات والأرض مُلك لله تعالى وحده لا شريك له، فليس لأحد شراكة في ملكها، فهو المالك والخالق لهما، ولما فيهما من الخلق، ثم ينفي عَزَّ وجل أن يكون له ولد سبحانه وتعالى ﴿ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا ﴾ وفي هذا رد على من زعم أن الملائكة بنات الله، ومن قال المسيح ابن الله، ومن قال عزير ابن الله. فيكذبهم جَلَّ في علاه بهذا النفي الذي يُبطِلُ افتراءهم على الله تعالى. ثم ينفي سبحانه وتعالى أن يكون له شريك في ملكه ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ ﴾ وورد نفي الشريك من الأصل، فنفى كونه وحصوله من الأصل، بالفعل المضارع المجزوم بلم ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ ﴾ فلم يكن أصلاً له شريك، ولن يكون ذلك أبداً، لأنه الخالق ابتداء، والمالك لما خلق. ثم أكد ذلك بتعميم جميع المخلوقات أنها له وحده لا شريك له ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴾ فكل مخلوق هو لله تعالى، فليس هناك مخلوق في ملكه ليس له سبحانه وتعالى.

بل من بديع خلقه عَزَّ وجل أن كل شيء خلقه كان وفق تقدير مقدر ومحدد، بدقة متناهية منه عَزَّ وجل ﴿ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴾ أي: خلقاً محكماً، وفق علمه وتقديره الذي قدره لكل مخلوق من خلقه. فيشمل التقدير: الإنشاء والتسوية، والهيئة، والتهيئة لما خُلِق المخلوق له. وكذلك الارزاق والآجال، وأنه سبحانه وتعالى أنشأ كل شيء لما هو له من المقصد والعمل، وقَدَّرَ له ما يُصْلِحُه لما خلقه له من التهيئة والقدرة. وقد أكد جَلَّ جلاله هذا التقدير بالمفعول المطلق، وهو ﴿ تَقۡدِيرٗا ﴾ الذي يفيد التأكيد، فقدره وفق ما أراد عَزَّ وجل بدقة متناهية، وأن هذا التقدير مؤكد تأكيداً لا يقبل شيئاً من النقص أو الزيادة عما قدره مالك السماوات والأرض. ومن ذلك أنه خلق الأرض بتقديره، وهيئها للإنسان بتدبيره وتسخيره وتقديره، بأن تكون مهيأة للإنسان في مساره وفي سكونه، وفي حرثه وزرعه ونشاطه، وغير ذلك. ومثلها الشمس والقمر، والكواكب، والماء، ونزوله، وكفايته، والهواء والرياح، وغير ذلك مما خلقه فقدره تقديراً دقيقاً، مما يدل ويفيد على أنه الرب الواحد الأحد، والخالق والمالك، والمتصرف، والذي يجب ألا يُعبد إلا هو عَزَّ وجل، وأن يُطاع بكمال الطاعة والانقياد.

وبالتالي فإن من أبحر في تأمل قوله تعالى ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴾ فإنه ينتهي عمره وما انتهى من إحصاء ذلك، سواء في أطوار وأحوال الإنسان، أو في تدبير رزقه وحاله وشؤونه، أو تأمل في الحرث وفي النبات والإنبات، أو الحيوان، أو في الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم والكواكب، وغيرها مما خلق الله تعالى. لوجد المتأمل أن التقدير فيها تقديراً محكماً وعظيماً. فسبحان من خلق وقدر كل شيء تقديراً

دقيقاً عظيماً، يليق بجلاله وعظيم قدرته وملكه. مما يفيد أهمية التدبر في الأنفس وفي عموم الكون، وما خلق الله تعالى فيه، وتصريفه لشؤون ما خلق. فإنه يُحَتِّم على من تدبره أن يؤمن ويخضع لله تعالى، خالق الكون العظيم.

وبعد بيان الله تعالى لكمال ملكه للسموات والأرض وما فيهما، وبيان عظيم تقديره وتدبيره، يخبر عَزَّ وجل بأنه بالرغم من دلائل الكون على وحدانية الخالق سبحانه تعالى، وأنه لا شريك له في ملكه إلا أن هناك من يمتطي الشرك، ويتخذ معبودات قاصرة عن تدبير نفسها، فضلاً عن تدبير غيرها، فيقول عَزَّ مَنْ قائل ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ فاتخذ المشركون من دون ربهم وخالقهم، الواحد الأحد، اتخذوا شركاء ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ بل من دقة السياق في كشف عوار شركهم هو البيان بتعدد آلهة المشركين، فلم يتفقوا على معبود واحد، بل اتخذوا آلهة متعددة، بما يبين بطلان شركهم، وقصور عقولهم، واختلافهم فيما بينهم، وبما يبين أن مَبْنَى اتخاذ تلك المعبودات هو الأهواء المختلفة.

ثم يصف تبارك وتعالى تلك المعبودات وصفاً يبين عجزها وبطلانها، وأول تلك الأوصاف ﴿ لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا ﴾ فإنها عاجزة عن إيجاد شيئاً من العدم، فتخلقه كما يخلق الله تبارك وتعالى المخلوقات، بل إن تلك المعبودات مخلوقة ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ فمن يعبد الملائكة، أو يعبد المسيح، أو يعبد عزير، فهم مخلوقين، قد خلقهم الله تبارك وتعالى. ومن يعبد الأصنام فإنها مصنوعة، ومنحوتة. فكيف يسوق لذي عقل أن يعبد مخلوقاً، ويشرك مع المتفرد بالخلق عبداً عاجزاً. فهي محاكمة عقلية؛ لمن له أدنى عقل إدراك. ثم يتدرج بيان عجزهم إلى فقدان الملكية ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ فلا تملك تلك المعبودات ما يدفع عنها ما يضرها، بل ولا تستطيع أن تجلب لنفسها ما ينفعها، فلو سلب الذباب منها شيئاً على ضعفه، لما استطاعت أن ترده، ولو حَطَّمَها أحدٌ كما حطَّم إبراهيم عليه الصلاة والسلام الأصنام لما استطاعت أن تدفع عن ذاتها ما يؤذيها. فكيف لها إذاً أن تقدم لغيرها خيراً، أو أن تدفع عنه شراً. فهي محاكمة تستثير العقل للتفكير والتأمل، مما يبين أن نهج الإسلام في التعليم قائم على الحقائق والحقائق والحجج والبراهين والإقناع، وبالتالي فإنه لا يكابر إلا معاند. وهذا الأسلوب في التعليم وفي إقامة الحجة يعطي الداعية والموجه والناصح والمعلم المنهجية العلمية في نقل الحقائق للغير في جميع المجالات.

ثم يتدرج البيان بعد كشف عجزهم إلى بيان فقدهم القدرة على الإماتة والإحياء لأي كائن حي ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ فتلك المعبودات من دون الله تعالى لا تملك أن تميت أحداً، ولا أن

تحيي من أماته الله تعالى، ولا أن تبعث أحداً من الأموات. فكيف يعبدون من هذه صفاته من العجز، ويتركون من بيده كل ذلك سبحانه وتعالى. ففي هذا البيان من الله تبارك وتعالى ما يقيم الحجة على كل كافر، وكل مشرك، بهذه الحجج والبراهين العظيمة. وقد سبقها بيان عظمة الله تعالى، وعظيم خلقه وتدبيره للكون كله، في نسق بديع عظيم، يشهد لربه أنه مربوب لله خالق كل شيء ومالكه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾

يكشف الله تبارك وتعالى أقوال الكافرين المعاندين، ويفندها، بما يبين عنادهم، وحسدهم، وتكبرهم على الحق الواضح المبين، وبما يبين أن كفرهم هو كفر جحود للحق. فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ وقال الكفرة من مشركي مكة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن القرآن الكريم ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي: إن هذا الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، وهو القرآن العظيم؛ ما هو إلا كذب، بل قُصِر بأداة القصر والحصر على أنه إفك مفترى ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ فليس مضمونه إلا افتراء، فنفوا عنه كل احتمال للصدق، فليس الأمر غير ذلك.

بما يفيد ويقرر استماعهم له، ومعرفتهم به، غير أنهم كذبوا به تكذيب جحود. وأكدوا ذلك بأنه قد ﴿ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ أي: اختلقه واخترعه من تلقاء نفسه. فنفوا أن يكون مُنَزَّلاً من عند الله تعالى بالرغم من غزارة معرفتهم بالعربية، وإدراكهم أن هذا الكلام لا يمكن أن يكون من كلام البشر. ولزيادة النفي والتكذيب فقد افتروا تهمة إضافية بأن ساعده وأعانه غيره عليه ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ أي: أعان وساعد محمد عليه الصلاة والسلام

قوم آخرون من اليهود، لأنهم أهل كتاب. قال مجاهد رحمه الله تعالى: يعنون اليهود[١] وهذا من قوة تماديهم في الكفر.

فيرد الله تبارك وتعالى على مقولتهم ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ فقد جاء هؤلاء المنكرون بالظلم وتزوير الحقيقة. فوصف الله تبارك وتعالى قولهم بأنه ظلم ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا﴾ وهو الافتراء على الحق بالتكذيب، فوقع ظلمهم على لقرآن الكريم، وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى من اتهموهم من اليهود. فقد نسبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم الافتراء والكذب، وبتالي كذبوا على الله تعالى وجحدوا القرآن العظيم، وهذا أشد الظلم منهم. كما أكد ذلك سبحانه وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ أي: عظيم جنايتهم بأنها مُختلق. فوصف عَزَّ وجل كلامهم وافتراءهم بالزور، وهو قلب الحقائق بطريقة التشبيه الذي يجعل غيرهم من الجهال يصدقونهم، فيؤدي ويفضي ذلك إلى تصديق غيرهم لهم من قوة التزوير.

والتزوير أو الزور: هو الكذب بقلب الحقيقة والتدليس والتلاعب بها، وهو كل ميل قولي أو عملي عن الحقيقة، فما كان بالقول فإنه يكون كذباً، وما كان بالفعل يكون باطلاً قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: الزور الكذب، وأحسن ما قيل في الزور: أنه الكذب الْمُحَسَّن المموَّه، بحيث يشتبه بالصدق[٢] بحيث يصدقهم غيرهم من الجهلة بهذا التمويه، فيصدون الناس عما جاءهم من الحق.

ثم يذكر تبارك وتعالى مزيداً من افترائهم الكذب، وتزويرهم للحقائق ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ ثم أكدوا افتراءهم السابق بمقولة عظيمة في الافتراء ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هي إلا قصص وأحاديث وأخبار الأولين التي يتناقلها الناس فيما بينهم من الترهات والأباطيل. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يعنون: كُتب الأوائل ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾ أي: استنسخها، قال الزمخشري رحمه الله تعالى: والمعنى: اكتتبها كاتب له، لأنه كان صلى الله عليه وسلم أمياً، لا يكتب، وذلك من تمام إعجازه[٣] ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ أي: تُقرَأ عليه ليحفظها. قال ابن الجوزي رحمه الله

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٦)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٤٣/٨)

(٣) الزمخشري، الكشاف (٢٦٣/٣)

تعالى: أي: تُقرَأ عليه ليحفظها، لا ليكتبها، لأنه لم يكن كاتباً[١] ﴿بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: في أول النهار وآخره[٢] بما يفيد المبالغة في العناية بمدارستها وتفهمها.

وتبين جملة ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ أنها تُلقى على النبي صلى الله عليه وسلم من غيره، وتُكتب له، لِتُقرَأ على الناس. وأمعنوا في الافتراء بأن جعلوه جهداً متواصلاً إلى درجة أنها ﴿تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ مبالغة في التهمة، وفي التزوير والكذب والبهتان، فتلقى بالإملاء صباحاً ومساء من أجل مدارستها وإتقانها. مما يدل على قوة افترائهم الذي يَنُمُّ عن قوة كفرهم، وبُغضهم وحسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم. كما يفيد بأن العدو الحاقد يصور الحقائق باطلاً، ظناً منه أنها تحقق مآربه وتطلعاته. وأنه لا يتورع عن كل وسيلة يتوصل بها إلى ما يتوهم به أنها تحقق له الاستعلاء. بل يصل به الحد إلى أن يُهلك نفسه بالكفر على حساب ظهوره وبروزه، وفرض عناده، وهو يعلم أنه كاذب ومفتري. فنسأل الله تعالى السلامة.

ثم يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بما يقوله لهم ولغيرهم، لتبقى آية ثابتة إلى أن تفنى الأرض ومن عليها ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ قل يا أيها النبي لهؤلاء المكذبين الطاعنين المفترين من أهل الزور ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إن الذي أنزل القرآن العظيم المشتمل على أخبار الأمم السابقة والأحكام والوعد والوعيد والأحكام والتشريع، وما أنتم مقبلون عليه هو الله تعالى الذي يعلم غيب السماوات والأرض، وسرائر العباد، وما يخفون وما يعلنون. فقد أحاط علمه بما خلق عَزَّ في علاه. فإن الذي أحاط علمه بكل ما خلق هو الذي أنزل القرآن الذي يُتلى عليكم من نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فوجهم سبحانه وتعالى إلى علمه الدقيق بالسرائر جميعاً، والتي منها سرائرهم، ليكون ذلك محفزاً لهم ولغيرهم بأن يتأملوا السماوات والأرض، وما يحدث فيها، وما يحدث منهم، فلا يغيب عنه السر، مهما تخفى العبد به. وفي هذا ترهيب لهم، بأنه عَزَّ وجل مُطَّلِع على ما يسرون وما يعلنون. وفيه تكذيب لما افتروه من أنه إفك وأعانه عليه غيره من أهل الكتاب. فقد أعجزكم بفصاحته وبلاغته، وما فيه من أسرار ما سبق من الأمم، وما فيه من أحكام يعجز عنها البشر.

ومن دقائق البيان أن كلمة ﴿ٱلسِّرَّ﴾ من قوله تعالى ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وردت عامة، لتستوعب كل سر، فلا سر في الكون يخفى على الله تعالى. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى:

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٦)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٢١/٣)

يستغرق كل سر، ومنه إسرار الطاعنين في القرآن عن مكابرة وبهتان[١] بل وورد التعميم الشامل لجميع الكون، سواء في الْعُلُو من السماوات، أو فيما يكون في الأرض، فالجهر والسر عند الله تعالى علانية، فلا يخفى عليه سبحانه وتعالى شيء في ملكوته كله.

ثم ختم سبحانه وتعالى الآية الكريمة بما يستدعيهم ويحثهم على لتوبة وعلى الرجوع إلى الحق ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فإن الله تعالى واسع المغفرة والرحمة، لمن رجع إلى لحق، وترك الباطل. وهذا من عظيم رحمته تبارك وتعالى، إذ لم يعاقبهم بحجب التوبة عنهم، بل يذكرهم ويحفزهم ويعلمهم أن من صفاته سبحانه وتعالى أنه غفور ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا ﴾ يغفر الذنوب لمن تاب، فتوبوا وارجعوا عن كفركم. وكذلك رحيم بعباده ﴿ رَّحِيمًا ﴾ فلا يعاجلهم بالعقوبة، لعلهم يتوبون ويستغفرون، ويعودون للحق. فعودوا إلى رشدكم، فإن رحمة الله تعالى واسعة. وفي هذا دعوة وتحفيز وتنشيط لعقولهم وقلوبهم بأن يعودوا إلى رشدهم، ويتوبوا من كفرهم، ويسلموا لله تعالى. مما يبين أن الله سبحانه وتعالى قد أراد بعباده الخير، وأنه ما أرسل الرسل ولا أنزل الكتب إلا رحمة بالعباد، ليوحدوا ربهم، ويعبدوه وفق ما شرع، ويصحح لهم مفاهيمهم، لتستقيم أمورهم.

وقد ورد بيان المغفرة والرحمة بأسلوب الإثبات الأزلي، فحرف **(إن)** من قوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ هو حرف توكيد، والفعل ﴿ كَانَ ﴾ فعل ماضي، مفاده أن المغفرة والرحمة صفة ثابتة لله تعالى، وليست حادثة لما وقع منهم، وخاصة بهم. بل إنها صفة من صفاته الكريمة. فالحمد لله رب العالمين على مغفرته ورحمته وفضله وهدايته.

ثم اتجه الطاعنون في القرآن الكريم إلى شخص النبي صلى الله عليه وسلم، فيخبر الله تعالى بما كان منهم من الطعن، الذي أوردوه بصيغة الاستفهام الاستنكاري، فقال تبارك وتعالى عنهم ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ فبعد أن طعنوا في القرآن بما افتروه من الكذب والبهتان والزور؛ وطعنهم في الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك الافتراء المختلق منهم، فإنهم اتجهوا إلى شخص وبشرية ومكونات ذات النبي صلى الله عليه وسلم، مستنكرين حاله البشري ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾ فاستنكروا عليه أن يكون من فئة البشر، فيأكل الطعام كما يأكلون، ويحتاج إلى الطعام كما يحتاجون إليه. ومع ذلك سَمَّوه بالرسول على سبيل التهكم

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٤٤/٨)

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ ﴾ فهم يعنون إن كان رسولاً حقاً، تَنَزُّلاً منهم على أنه رسول، فلماذا يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق. قال الشوكاني رحمه الله تعالى عن دلالة اسم الإشارة ﴿ هَٰذَا ﴾: وفي الإشارة هنا تصغير لشأن المشار إليه، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسموه رسولاً استهزاء وسخرية[١] ليتبين قوة عنادهم وباطلهم، وقوة ما كان يواجه صلى الله عليه وسلم من قومه الكافرين.

ثم استنكروا كذلك مشي النبي عليه الصلاة والسلام في الأسواق، فيرون أن الرسول مستغني عن حاجاته من الأسواق ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ فإنه يتردد في الأسواق كما يتردد فيها غيره ذهاباً وإياباً، فيقضي منها حوائجه، قال القرطبي رحمه الله تعالى: وكان عليه الصلاة والسلام يدخلها لحاجته، ولتذكرة الخلق بأمر الله ودعوته، ويعرض نفسه فيها على القبائل، لعل الله أن يرجع بهم إلى الحق[٢] ووردت الأسواق بصيغة الجمع ﴿ ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ ليدل على تعددها، وأنه عليه الصلاة والسلام يجوبها داعياً إلى الله تعالى، وطالباً للمعاش، ويقضي حوائجه كغيره من الناس عليه الصلاة والسلام. ولو كان عليه الصلاة والسلام لا يدخل الأسواق لدل ذلك على أنه مَلِك من ملوك زمانه، ولترفع عنهم وعليهم، فكيف يقبلون منه؟ أو كان مَلَكاً من الملائكة، بل كان بشراً مثلهم، يفهمونه ويفهمهم، ويُعلمهم وينصحهم، ويعرف كيف يدعوهم.

ثم يقترحون ما يتصورونه في عقولهم الحاسدة الحاقدة المتكبرة ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ فهلا يأتي معه مَلَك من الملائكة فيوثق ويصدق ويؤكد لنا أن محمداً رسول من الله تعالى. فورد طعنهم بأسلوب السؤال الاستنكاري والتقريري، فهو استنكار من أن ليس معه مَلَك، وتقريري، ليقرروا بهذا الانتفاء أن الأولى أن ينزل من الله تعالى معه مَلَك، وتكون مهمة الْمَلَك هو الإنذار ﴿ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ فيكون الْمَلَك منذراً للناس مع النبي صلى الله عليه وسلم، ومؤيداً ومصدقاً له فيما يقول إن كان صادقاً في نبوته. ولكن ليس معه شيء من ذلك، فيكون بذلك غير صادق فيما يقول من أنه رسول من الله تعالى.

وما كان رسول فيما سبق إلا بشراً، وما أنزل الله تعالى ملكاً يمشي مع من سبق من الرُّسُل. مما يدل على أنهم يريدون الرسول كما يشتهون ويهون ويرغبون، ولو كان الأمر كذلك لاختلفوا بينهم فيما يريدون من

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤/٦٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣/٦)

أوصاف، ولكن الله تعالى جعل مع كل نبي معجزة، وأن أقوى وأظهر معجزة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن، الذي نزل بينهم، وهم أفصح العرب، ولذلك أسلم الكثير ممن سمع القرآن. بل شهدوا له بذلك كما قال عتبة بن ربيعة: إني قد سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه. فوالله ليكوناً لقوله الذي سمعتُ منه نبأ عظيم[١] واستمع جبير بن مطعم رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ بسورة الطور، فأسلم. وقال كاد قلبي أن يطير إلى الإسلام عند سماعه آياتها.

ثم اتجه المعاندون إلى مقترح عقلي آخر، فقال الله تعالى عنهم ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ فجعلوا خياراً عقلياً آخر؛ يقترحونه عناداً في الكفر، وصداً للناس عن دين الله تعالى، لأنهم يخاطبون غيرهم بمقترحاتهم ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ ﴾ فهو مقترح منهم لغيرهم ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ بأن يُنَزِّل اللهُ تعالى عليه كنز من المال الكثير؛ المخزون، لينتفع به، فيرونه عنده، فاشترطوا لصحة النبوة في مقترحهم: هو أن يَنْزِلَ عليه من عند الله تعالى مال عظيم، يغنيه عن طلب الرزق، والمشي في الأسواق. وفي تسميتهم لهذا المال بالكنز ليفيد الكثرة والحفظ، لأن أصل الكنز كما ذكر الأصفهاني رحمه الله تعالى: أن الكنز جعل المال بعضه على بعض، وحفظه[٢] مما يدل على فهمهم بأن الغنى هو علامة السعادة، وعلامة الاصطفاء، وأنه يلزم أن يكون النبي صاحب مال عظيم. بل اشترطوا الإنزال والإلقاء للكنز، بأن يكون من علو، أي: من السماء ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ مما يدل على أنهم يريدون رؤية الإنزال للكنز. فإنهم متجبرون حتى في مطالبهم.

وإن لم يحصل ذلك فبديلهم المقترح والمشروط هو ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ فيكون له بستان، أي: مزرعة كبيرة، فيأكل منها، فيكون قد تميز بها عن غيره. فيريدون أن يكون حاله صلى الله عليه وسلم غير حالهم، ومخالف لهم، ومتميز عليهم. ثم لعلمهم أن الأمور لا تكون كما يقترحون، انتقلوا إلى الطعن في ذاته صلى الله عليه وسلم، فقالوا بما ذكره الله تعالى عنهم ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ فقال هؤلاء المتصفون بالظلم لرسولهم صلى الله عليه وسلم وللحق الذي جاء به لهم من عند ربهم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ فإن اتبعتموه فإنما تتبعون رجلاً قد أصابه السحر. فرموه

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/٣١٣-٣١٤)

(٢) االراغب الاصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٤٤٢)

بأنه مسحور عليه الصلاة والسلام. وفي هذا مخاطبة منهم لأتباع النبي عليه الصلاة والسلام من الصحابة رضي الله عنهم، فهو على سبيل التحذير والشفقة عليهم.

وقد سماهم الله تبارك وتعالى بالظالمين ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ إثبات ظلمهم بتجاوزهم، وكفرهم وعنادهم، واستهتارهم بما جاءهم من الحق، واستهزائهم برسولهم صلى الله عليه وسلم. فإن كل ذلك ليس بعسير على الله تعالى، ولكنه الملك والمدبر الذي له الأمر والشأن كله، فليس لعبيده أن يقترحوا عليه، بل واجبهم الطاعة والامتثال. ولكن الكبر والحسد والعناد يجعل صاحبه يكابر. وفي هذا البيان ما يكشف سوء تعاملهم مع النبي صلى الله عليه وسلم، وقوة وشدة ما كانوا يواجهون به الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الدرجة التي يضيق بها الصدر، ومع ذلك صبر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. مما يعلم الداعية والناصح ومحب الخير لغيره أن يصبر على من يعاديه ويعانده، ويحلم عليهم، وأن الله تعالى ناصر من اهتدى بهديه.

ولما أن ما ضربوه من الأمثال باطلاً، مع تشتتهم في ضرب الأمثال، فإن ذلك قد كشف أنهم في حيرة من شأنهم، بل هو دليل على ما هم فيه من التيه. الذي نتج عنه ضلالهم في الكفر ﴿ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ فاحتاروا في متاهات الضلالة حتى بلغ بهم الأمر أنهم لا يستطيعون الوصول إلى طريق الرشاد والهدى والسلامة. مما يدل على انغماسهم في الكفر، وأنهم تاهوا في بحره ولجحه. وفي هذا البيان ما يفيد ويبين حجم ما كان يجده صلى الله عليه وسلم من الكفرة من قومه، ومع ذلك يصبر ويحلم عليهم صلى الله عليه وسلم. ولكن عون الله تعالى وتسليته له بما ينزل عليه من الوحي الكريم كان قوة له عليه الصلاة والسلام.

وقد بدأ التوجيه الكريم بكلمة ﴿ ٱنظُرْ ﴾ التي تشد الانتباه، وتلفت حواس التلقي نحو التأمل، بتقليب البصر والبصيرة، وتقليب الفكر فيما ضربوا لك به من الأمثال، لتكتشف ما هم فيه من الباطل. وتفيد لفظة ﴿ كَيْفَ ﴾ استثارة الذهن ليتصور عليه الصلاة والسلام دلالة تلك الأمثال، وما تعبر عنه، وما تكشف له عن حقائق نفوسهم، وما انطوت عليه من الظلم والحسد والبغض. ودلالة ﴿ كَيْفَ ﴾ في خطاب القرآن الكريم تستثير الذهن، ليتصور ما يحيط ببهتانهم وجراءتهم على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم بالقول والبهتان الفاسد، وقلب الحقائق. مما يدل على نعمة التأمل والملاحظة والاستنتاج والاستنباط من واقع الحال. فإن نظر البصر والبصيرة نعمة عظيمة، ليتفقه به الإنسان في المنافع والمصالح، وفي الخطأ والصواب، وأن ذلك وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الحقائق، وما تدل عليه.

ومن الفوائد الأسلوبية في قوله تعالى ﴿ ٱنظُرْ ﴾ أنها تَلفِت الانتباه، كما أن كلمة ﴿ كَيْفَ ﴾ زادت من أهمية العمق في التأمل، وتقليب البصر والبصيرة. وأن كلمة ﴿ ٱنظُرْ ﴾ متعلقة بالْمُخَاطَب، بأن

يتأمل ويُمْعِن النظر في التطاول والتمادي، ودواعي الغرور والبهتان، حتى يخرج الْمُخَاطَب بالنتيجة المقنعة بفساد سلوكهم الذي جعلهم يكذبون كذباً لا لبس في بهتانه، وظلمهم وتجرؤهم على الحق، وعلى من أُنزل الحق، وعلى الرسول الذي أُنزِل عليه الحق، ويدعوهم إلى الحق صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أنه قد تحقق من تعاقب كلمة ﴿ كَيْفَ ﴾ بعد الأمر بكلمة ﴿ ٱنظُرْ ﴾ مقصداً عظيماً، وبياناً بلاغياً عميقاً، بما يدل على عظيم البيان في القرآن الكريم، ودقة مكوناته اللفظية، وهذا من عظمة كلام الله تعالى وإعجازه في كل لفظة فيه.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا
﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟
لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ
ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ
كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾

يستمر اتجاه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، بما يبين قدرة الله تعالى على أن يعطيه خيراً مما اقترحوه من النعيم الدنيوي، ولكن لله تعالى عظيم الحكمة فيما يقدره لرسوله صلى الله عليه وسلم، ولجميع عباده. فيقول تبارك وتعالى ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴾ فانطلق البيان لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، ولكل من يسمع آيات الله تعالى بما بدأت به سورة الفرقان من تمجيد خير الله تعالى وبركاته ﴿ تَبَارَكَ ﴾ تبارك عطاؤه، وزاد وكثر. بما يفيد التعظيم والتقديس لذاته سبحانه وتعالى، بما أفاض من الإنعام والخيرات على عباده، ومنهم نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم، بما اصطفاه من الرسالة، وبما أنزل عليه من الوحي، وأعظمه القرآن العظيم. فتبارك الله عَزَّ وجل. ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ فلو شاء وأراد سبحانه وتعالى لجعل لك أيها النبي خيراً مما اقترحوا من الكنز والجنات، فيجعل لك ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ فيعطيك فيما لو شاء وأراد حدائق وبساتين، تتخللها الأنهار المتدفقة بمياهها التي تُبهر من رآها. لأن عطاء الله تعالى أعظم مما يتصوره العباد. وكذلك ﴿ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴾ من المنازل الفارهة فينبهرون بمكوناتها. ولكن لله تعالى الحكمة البالغة فيما أعطاك، وزودك به. فهو العليم بعباده.

وفي ربط إيجاد تلك الجنات والقصور بمشيئته سبحانه وتعالى ما يبين جلالة وعظمة مشيئة الله تعالى، وتحقق ما يشاء إذا أراد أمراً، فإنما يقول له: كن. فيكون. كما أن لفظة ﴿ جَعَلَ ﴾ وردت مرتين في هذه الآية، المرة الأولى: بصيغة الماضي ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ والثانية: بصيغة المضارع ﴿ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ فالأولى ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ لتفيد تحقق ذلك قطعاً في الدنيا وابتداء مسبقاً، فتجده أمامك. قبل نبوتك أو منذ نبوتك. وأما صيغة المضارع ﴿ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ فتفيد الإيجاد مع التجدد، وتتابع تشييد القصور، المبهرة، لأن طبيعة القصور تتجدد وتتغير، فيناسبها الفعل المضارع. كما وقد أفرد البيان عطاء القصور بجملة منفردة عن عطاء الجنات والأنهار لوجود التغاير بينهما. وهذا من قوة دقة البيان الرباني، وجلالة الإعجاز في ألفاظ القرآن واختياراته. وبما يفيد استمرار العطاء وتكراره هبة لك من الله تعالى. وكل لفظة منهما استوفت كمال التحقق المناسب لها.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى ما هو أعظم من تكذيبهم للنبي صلى الله عليه وسلم، بما يقطع ويؤكد تعنتهم في كفرهم. فإنهم ينكرون الساعة، الأمر الذي يفيد أنهم ينكرون العودة إلى الله تعالى، وينكرون الحساب، والجنة والنار. وبالتالي فإن حالهم مع الكفر متأصل حتى لو حصل لك أيها النبي ما يقترحون، فإنهم منكرون ليوم القيامة ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ ﴾ فإنهم مكذبون بيوم القيامة، والبعث والنشور، وما يتبع ذلك من الحساب والجزاء، والجنة والنار، مما يبين أن من كفر بيوم القيامة وما يتبعه من الرجوع إلى الله تعالى، فإنه لن يطيع رسولاً، لأنه لا يعتقد بالحساب والجزاء.

ثم يخبر عَزَّ وجل عن جزاء من كفر بالساعة ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ فجزاء من كفر بالساعة ناراً عظيمة، قد اشتد سعيرها ولهيبها. وفي هذا البيان ما يفيد تعظيم الزجر والتهديد لهم، والتشنيع عليهم بهذا الإنكار الذي يجعل صاحبه يقطع الأمل والرجاء في الحياة الآخرة. فيعيش لدنياه فقط بتفكيره وجهله. ففي كمال الإيمان ما يضبط الفهم والإرادة، وكمال وجمال التصرف. فالتصديق بأركان لإيمان نعمة عظيمة في الدنيا والآخرة.

ثم يخبر عَزَّ وجل بما يكون من هذه النار عند رؤيتهم ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ فإن من شدة تغيظ النار منهم، فبمجرد رؤيتها لهم، يتعاظم منها إظهار الغيظ لشدة حنقها عليهم، فتزداد غلياناً، مع قوة الزفير الذي هو ترديد النفس. فيسمعون لهذه النار غلياناً كصوت من اشتد غضبه. بل يحصل هذا الغليان من النار حال أن تراهم من بعيد ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ فبمجرد رؤيتها لهم يسمعون

تغيظها وزفيرها، مما يبين قدرة الله تعالى العظيمة، بأن جعل للنار ما تراهم به من الإبصار الذي يتلاءم مع حالها، فسبحان من لا يعجزه شيء عَزَّ وجل. ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ فيسمعون غيظها عليهم، بسبب ما كان منهم من الكفر والعناد، ويسمعون زفيرها الذي هو ترديد النفس، فإن حالها كحال الغضبان إذا فاض صدره من الغيظ.

ثم يخبر الله تعالى عن حال هؤلاء الأفَّاكين الكافرين وحال النار معهم ﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ فحين يُطرحُون في النار تضيق عليهم ﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا ﴾ فمكانهم في النار متصف بالضيق، بما يبين شدة كربهم، وما هم فيه من شدة العذاب، وتناهي قوته عليهم. ومن مزيد العذاب أنهم في النار ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ أي: مقيدين ومكبلين ومصفدين بالأصفاد فيها، زيادة في النكاية بهم، وتضييق الخناق عليهم، بحيث لا يستطيع الواحد منهم الحركة، مع شدة عذاب النار التي تسطلي بهم. وحينها يكون نداءهم وقولهم من شدة الكرب: الويل والهلاك ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ فيتنادون فيما بينهم ﴿ ثُبُورًا ﴾ أي: ويلاً وهلاكاً، أي يقولون فيها: يا هلاكنا، يا ويلنا. فهو نداء بالويل والحسرة والخيبة. مما يبين شدة ما هم فيه من العذاب الحسي والعذاب النفسي المعنوي. وفي هذا بيان من الله تعالى لما سيكون من حالهم قبل أن يكون، بما يفيد الإنذار والتحذير، واغتنام فرصة الحياة بالإقلاع عن الكفر، والدخول في الإسلام. وهذا البيان هو من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يحذرهم بأسلوب الإنذار والإعلام والإخبار. فالحمد لله على بلاغه وبيانه عَزَّ وجل، ونسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة.

فيقال لهم نكاية وتوبيخاً وتأييساً ﴿ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ لا تنادوا اليوم فيما أنتم فيه ﴿ ثُبُورًا وَٰحِدًا ﴾ هلاكاً وويلاً واحداً، بقولكم: يا ثبوراه، يا هلاكاها. فإن هلاككم متعاقب لا ينتهي من كثرته ﴿ وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ فادعوا ونادوا نداء متتالياً، واحداً بعد الآخر، نداء متصفاً بالكثرة والتعاقب. بما يفيد اليأس من الخروج أو التخفيف مما أنتم فيه، فإنه مهما ناديتم بما أصابكم من الهلاك، فلن تخرجوا من عذابكم، فاستمروا وأكثروا من الويل والتوجع، فلا مجيب لكم. وهذا غاية التحذير، لمن أراد السلامة في الدنيا والآخرة. فواجبهم الاعتبار، والامتثال للحق الذي أنزله الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يوجه الله تعالى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴾ قل لهم أيها النبي على سبيل التحذير ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ هل هذا الموصوف لكم من العذاب هو الخير، والأفضل والأحسن ﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ﴾ أو الجنة التي يخلد فيها الموعودون بها، وهم المتقون، الذين اتقوا ربهم في الدنيا ﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ الذين اتصفوا بالخوف من الله تعالى، وسعوا في طاعته، رجاء رحمته، فإن الجنة التي وُعِدُوا بها ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴾ ستكون تلك الجنة التي وعدهم الله تعالى بها ثواباً على طاعتهم، ومآلاً دائماً لا ينقطع. فهي متصفة بصفتين: الصفة الأولى: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً ﴾ فإنها جزاء طاعتهم، التي تمثلت في تقواهم في الدنيا. والصفة الثانية: ﴿وَمَصِيرًا ﴾ فإنها المصير والمآل الدائم الذي سيؤولون إليه من غير انقطاع. فهل هذا هو الأفضل أم ذلك المصير الذي أعده الله تعالى للكافرين. فهو سؤال يستنطق الفهم والعقل. والحث بالمقارنة على الطريق الصحيح. بما يؤكد أن هذا الدين هو دين علم وحجة وبرهان، وأنه قائم على الإقناع بالأساليب المتنوعة في صورتها وبيانها. فليس بعد هذا البيان المقنع بيان، وليس بعد هذه الحجج والبراهين حجج لمن ألقى السمع لها وهو شهيد. وهذا البيان والتحذير، يدل على رحمة الله تعالى بالعباد، وأنه أراد بهم الخير إلا مَن أبى وامتنع بالعناد والكبر.

ثم يبين تبارك وتعالى المزيد من حال أهل الجنة ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ فمن نعيمها أن ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ فما يشتهي أحد من أهلها شيئاً إلا ويكون عنده حاضراً، من غير تعب ولا عناء. فإنهم في لذة دائمة لا تنقطع. من مطاعم ومشارب، وملابس، وحور عين، وقصور، وجنان وأنهار. وأيضاً ﴿خَٰلِدِينَ﴾ خالدين فيها خلوداً لا ينتهي أبداً. ثم يؤكد ربنا تبارك وتعالى ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ فهذا العطاء الموعود به المتقون وعداً متحققاً من ربكم سبحانه وتعالى لكل من سأل الجنة، وسعى لها. وهو الوعد المحقق الذي يُسأل ويُطلب. فلا بد أن يقع وأن يكون كما أخبركم ربكم به. فهو وعد أوجبه الله تعالى لمن سعى لها، سائلاً إياها. وبالتالي فهو الوعد المحقق الذي يجب على العباد أن يسألوه ويطلبوه. بما يفيد فاسعوا لها بالسؤال والطاعة والامتثال لما جاء به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، واحذروا من تفويت النعيم المقيم.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

ثم يُخبر اللهُ تبارك وتعالى بحال الكفرة المشركين يوم الحشر، وحال من عبدوهم من دون الله تعالى، ومحاكمتهم بالعدل، وهو أعلم بهم وبحالهم سبحانه وتعالى من غير ما سؤال، وهو الملك القاهر فوق عباده، ولكن من عدله في الحساب والجزاء ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ فإنه يوم يُحْشَرُ المشركين وشركائهم من المعبودات المختلفة، سواء ما كان من الملائكة، أو عيسى أو عزير، أو الجن، أو الإنس أو غيرهم من الأصنام ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وفي هذا إثبات الحشر للمشركين المكذبين وما كانوا يعبدون من دون الله تعالى، قال مجاهد رحمه الله تعالى: عيسى وعزير والملائكة(١) وقال القرطبي رحمه الله تعالى: من الملائكة والإنس والجن، والمسيح وعزير، قاله مجاهد وابن جريج. وقال الضحاك وعكرمة: الأصنام(٢) وإن كانت الأصنام جماد لا تنطق، فإن الله تعالى يُنْطِقُها في الآخرة، فلا يعجزه إنطاقها كما يُنطق الأيدي والأرجل، وكما جعل نار جهنم ترى القادمين عليها من بعيد فيكون لها تغيظاً وزفيراً، كما وصفها تبارك وتعالى ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ فإن أحوال الآخرة ليست كأحوال الدنيا. وأن الله تعالى هو الذي يعطي الخصائص لمن يشاء، ويعطلها لمن يشاء، ومتى يشاء، ويمنعها عمن يشاء، فكم من الناس لا ينطق، والبعض لا أعمى ولكن لا يرى، والبعض لا يسمع. فإن لله تعالى الملك كله.

فقوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ يفيد جميع من عُبد من دون الله تعالى. وفي هذا تذكير لهم بما سيكون لهم مما هم قادمون عليه، ليعتبروا ويحذروا ويقلعوا عن كفرهم. فَذَكّرْهُم يا أيها الرسول بما سيكون من حالهم وحال من عبدوهم من دون الله تعالى يوم الحشر. حيث يتوجه سؤال

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤١٥/١٧)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩/١٣)

المحاكمة إلى من عبدوهم من دون الله تعالى ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ فهو سؤال استفهام تقريري، يقرر به عَزَّ وجل ما كان منهم من الشرك، وذلك للتوبيخ والتقريع على ما كان منهم. فيتوجه السؤال من الله تعالى للمعبودات على وجه التقريع لمن عبدوهم، بما يُثبت ويبين أن عبادة من عبدوهم كانت باختيارهم وإرادتهم. فيقول الله تعالى للمعبودات ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فهل أنتم أيها المعبودين غررتم ودعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني؟ ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ أم أن هؤلاء العابدين المشركين عبدوكم من تلقاء أنفسهم، فضلوا طريق الحق والصواب، من غير دعوة منكم لهم، فانحرفوا بأنفسهم وتاهوا عن الحق الذي كان يجب عليهم أن يسلكوه، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة، وفق ما شرع لهم من الشرع؟ وفي هذه المحاكمة إثبات عدل الله تعالى، وهو أعلم بهم من غير محاكمة، ولكن في ذلك إظهار عدله عَزَّ وجل، وبيان تَبَرُّء المعبودات منهم، وترسيخ الحسرة في نفوسهم، مع كشف الحقيقة لكل أنواع الشرك، مهما اختلفت المعبودات وتباينت، فجميع الأنواع هي كفر بالله تعالى. وهو بيان يفيد الإنذار، وتعليم الأحياء مما هم قادمون عليه. ويكشف لهم بذلك أنهم عبدوا ما يعبدون من دونه سبحانه وتعالى من غير طلب من تلك المعبودات، فحتى المعبودات لم تطلب منهم عبادتهم لها. فإنما هو اختيار محض منهم، وتعدي على حق ربهم تبارك وتعالى.

فتقول تلك المعبودات من دون الله تعالى، ما قاله عَزَّ وجل عنهم ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ فبدأ جواب تلك المعبودات بتنزيه رب البرية عما فعل هؤلاء العابدون المشركون الكافرون ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: ننزهك تنزيهاً كريماً من أن يكون معك شريك يا ربنا. فليس للخلائق جميعاً أن يعبدوا غيرك يا ربنا. ثم يُثبتون ولايتهم لله تعالى، بأسلوب النفي المطلق ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ فما كان ينبغي لنا أن نعبد غيرك، فكيف ندعوا غيرنا إلى عبادتنا؟ فلا ينبغي لنا أن نوالي أحداً، ونتخذه ولياً وركناً من دونك. وبالتالي لا يمكن لنا أن نقول لغيرنا نحن أولياءكم من دون الله عَزَّ وجل. فَأَثْبَتُوا أن وليهم الله وحده لا شريك له. وجملة ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾ تفيد النفي المطلق، فليس أصلاً أن يكون لنا ذلك ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أن نتخذ غيرك ناصراً ومعبوداً، وولياً، فأنت ولينا وحدك لا

شريك لك. وهذا قوة في التبرئة من أن يدعوا غيرهم ليعبدوهم من دون الله تعالى. مما يفيد أنهم لم يأمروا أحداً بعبادتهم.

ثم ينتقلون إلى شأن هؤلاء المشركين ببيان ما أنعم الله تعالى عليهم من فضله ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ فيذكرون علة طغيان العابدين من دون الله تعالى، وتماديهم في الكفر ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ فقد أطغتهم النِّعَم التي أنعمت بها عليهم وآباءهم من الفضل. وطالت أعمارهم ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ فنسوا ما أنزلته إليهم على رُسِلك، من توحيدك، وعبادتك وحدك لا شريك لك، وأنه لا شريك لك عَزَّ وجل في ملكك وفي عبادتك البتة. وبالتالي أصبحوا خائبين هالكين ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ فكان هؤلاء قوماً هالكين؛ بما غلب عليهم من الشقاء. والبائر هو الكاسد والفاسد الذي ليس له قيمة، ومن ذلك بوار السلعة، إذا تركها الناس، ولم تجد من يشتريها. فحالهم هو حال من لا قيمة ولا وزن له، فهو تشنيع لهم، ولما كان منهم، إذ أفقدهم شركهم القيمة الحقيقة التي يحظى بها المؤمن عند ربه تبارك وتعالى. مما يدل على أن الوزن والقيمة هي للإيمان والطاعة والتقوى؛ التي تجعل لصاحبها منزلة رفيعة عند الله تبارك وتعالى.

ثم يتجه خطاب المحاكمة العادلة إلى المشركين، بتأكيد ما قاله المعبودون من دون الله تعالى، من الملائكة والإنس والجن والأصنام، وذلك توبيخاً وذماً لما كان من المشركين ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ فلقد كذبكم هؤلاء الذين عبدتموهم ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ من أنهم آلهة من دون الله تعالى، وأنهم كانوا لكم أولياء ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ فلا تستطيعون الآن صرف العذاب عن أنفسكم، بأي حيلة ولا سبب، فقد تقطعت وامتنعت عنكم الأسباب، وكذلك ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ ولا يوجد لكم ناصر ينصركم، ويعينكم على الخلاص من العذاب. فقد أصبح العذاب متحقق فيكم. وأصبحتم في عذاب مقيم، لا تستطيعون انقاذ أنفسكم منه، والفكاك من جهنم وبئس المصير.

ثم يؤكد الله تعالى عاقبة الشرك ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ فمن يشرك منكم أيها الناس، ويموت على شركه ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أي: عذاباً في الآخرة شديداً. وكلمة

﴿ كَبِيرًا ﴾ تفيد ضخامته، وشدته، وتوضح أنه ليس بالعذاب السهل والبسيط، بل متعالي في قوته وشدة بأسه. بما يفيد التحذير من المصير الذي تم بيانه وإيضاحه، حتى بلغ الإيضاح ما يكون من المحاكمة والمحاورة الواضحة التي ستكون يوم البعث والنشور والحساب والجزاء. وهذا البيان هو من فضل الله تعالى ورحمته، إذ حذر العباد من الشر والشرك، وبينه لهم، ودلهم على الخير، ورغبهم فيه. فالحمد والشكر لله تعالى. اللهم إنا نسألك حسن الخاتمة، والجنة وما قرب إليها من قول أو عمل. ونعوذ بك من النار، وما قرب إليها من قول أو عمل.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

ثم يعود التوجيه الكريم إلى الرد على شبهات المستكبرين على الحق، الذين استنكروا أن يكون الرسول مثلهم، يمشي في الأسواق، ويأكل الطعام ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴾ يخبر الله تعالى بما اقتضته حكمته من كون المرسلين جميعاً هم من البشر، ويسري عليهم ما يسري على البشر ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ فلم يكن قبلك أحد من المرسلين السابقين الذين أرسلناهم إلى أقوامهم إلا وهم مثل غيرهم من الناس، يأكلون الطعام ﴿ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾ ويذهبون للأسواق في طلب حاجاتهم، وأرزاقهم. بما يفيد: فما وجه الاستثناء الخاص بك، ليفيد ما هو إلا عناد وكبر وحسد. فلا تلتفت إلى مقولاتهم النابعة عن الحسد والكبرياء على الحق. وورد البيان الكريم بصيغة التأكيد ﴿ إِلَّآ إِنَّهُمۡ ﴾ وليفيد الحصر بأن المرسلين جميعاً يأكلون الطعام، ويذهبون لقضاء حاجاتهم من الأسواق. فهم من جنس البشر، ويسري عليهم ما يسري على جنس الإنسان من الأكل والشرب، وابتغاء حاجاتهم من الأسواق.

ثم يخبر الله تعالى بسننه في خلقه، والتي اقتضتها حكمته، حتى يتباين الصالح من الكالح الفاجر ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ فقد جعلنا وسَيَّرْنَا بحكمتنا بعضكم لبعض ابتلاء واختبار، ليظهر صاحب الإيمان بصبره وطاعته، وصاحب الخيبة والشر بعناده وكفره وشره. وهذا الابتلاء والاختبار عام في جنس الإنسان. فالفقير قد يُفتن بما يراه من ثراء غيره، والسقيم والمريض بما يرى من صحة غيره، وكذلك الأصم والأعمى، والصحيح والغني والرفيع والشريف، والرئيس والمرؤوس، أيشكرون أم يبطرون على غيرهم. فصاحب النعمة في ابتلاء مع غيره، وصاحب النقص والقلة في ابتلاء مع ما يراه في غيره. وكذلك في تعامل الناس فيما بينهم، فإنه مليء بالابتلاء وفتنة الاختبار. وقد جعل الله تعالى الصبر تقريراً وفارقاً بين البشر، وقد أورده سبحانه وتعالى بصيغة السؤال ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ ليفيد تقرير قيمة الصبر ومنزلته، وحثهم عليه، ولزومه. وبالتالي تظهر قيمة الصابر على الحق، ومنزلته ورفعته. أتصبرون على هذا الابتلاء بما يأتيكم من أعداء الدين، وما يكون من أحوالكم، فتنالون بصبركم منزلة الصابرين، أو لا تصبروا فيفوتكم ثوابه.

ثم يختم الله تعالى هذا البيان بتقرير وتأكيد منزلة الصبر، مع بيان موقع وعلة الحث عليه ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ فإن ربكم أيها الْمُخَاطَبُون عَليم بكم، وبصبركم على ما تواجهون، وبمن يجزع، وبالذي ينتقم، وبجميع أحوال النفوس، وما يكون منها، وما تتأثر به، فيعلم الصالح والفاسد، وما يكون في القلوب، وما يختلج فيها. فإنه عليم بصبر الصابرين، من غير إعلانهم له؛ والبوح به. فهو يثيبكم ويجازيكم على صبركم تجاه ما تواجهون. الأمر الذي يفيد أن هذا الإخبار بعلم الله تعالى يفيد الحث على أن يكون منهج تعاملهم هو مع ربهم تبارك وتعالى الذي لا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه، فإنه بصير بكم، فيثيبكم ويجازيكم، وهو معكم بعونه وتسديده لكم.

ومن دقائق البيان أن ورد قوله تعالى ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بصيغة العموم، ليشمل علم الله تعالى بجميع أحوال الإنسان التي يكون عليها. كما أن في إسناد ضمير المخاطب، وهو حرف الكاف من ﴿رَبُّكَ﴾ إلى الرب تبارك وتعالى ما يفيد ويبين خصوصية الاهتمام والعناية، وأنك أيها الرسول بصبرك على ما تلاقيه من عناء ومشقة، والمؤمنون تبع لنبيهم فإنه محل عناية وثواب وجزاء. فإن الله تعالى معكم بعلمه وعونه وثوابه، فلا يضيع من حقكم شيئاً. فربكم عليم بجميع ما تواجهون، وبما يكون منكم من صبر ومجاهدة وغير ذلك. مما يعلم المؤمن بأن الله تعالى مطلع على شأن كل مؤمن، وأنه يجازي كلاً بعمله. فلا يضيع من أعمالهم شيئاً البتة.

ثم يخبر الله تعالى بما قال الذين خلت قلوبهم من خوف ربهم وعقابه، وقطعوا الأمل من لقاء ربهم، وقاطعوا الأمل في أن يكون هناك بعث ونشور، وحساب وجزاء، وجنة ونار، فيقول الله تبارك وتعالى عنهم

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ فقال الكفرة المعاندين ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ الذين قطعوا الأمل في لقاء الله تعالى يوم القيامة، فأنكروا الحياة الآخرة، وكل ما هو متعلق بها، من البعث والحساب والجزاء، والجنة والنار. فيقولون عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ فيقترحون للتصديق أن تنزل الملائكة عليهم، لتخبرهم بأن محمداً عليه الصلاة والسلام رسول من عند الله تعالى، فتشهد للرسول صلى الله عليه وسلم بالرسالة. ﴿أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ وهذا مقترح آخر منهم بديل عن نزول الملائكة، بأن يروا الله تبارك وتعالى عياناً، فيخبرهم بصدق رسالة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. مما يبين قوة عنادهم وتمردهم.

ثم يخبر الله تعالى بدلالة هذه المطالب والمقترحات ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ لقد استعظموا أنفسهم، وإعجابهم بما هم عليه من الاستكبار إلى درجة الاشتراط وفق الأهواء، دون اعتبار لقوة الحجج والبراهين التي تدل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم. ثم يصف الله تعالى درجة هذا الاستعظام بقوله عَزَّ وجل ﴿وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ وهو أقصى درجات وشدة الاستعلاء. قال القرطبي رحمه الله تعالى: والعتو هو أشد الكفر، وأفحش الظلم(١) وهو مجاوزة الحد في الظلم، وفي الاستعلاء والاستكبار. مما يبين أن الإنسان إذا توغل في الباطل، يتمادى فيه، حتى يستعظم من نفسه قبول الحق، فيصر على الباطل، ومدافعاً عنه، من أجل إشباع ما استعظمه من نفسه. بعكس التواضع الذي يجعل صاحبه يقبل الحق، ويذعن له. مما يفيد أهمية الانتباه للنفس، وأهمية تربيتها، وترويضها للحق.

ثم يخبر الله تعالى بما ينتظرهم من أوائل العذاب حين رؤيتهم للملائكة التي يطالبون بها، ويقترحون نزولها تصديقاً للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴾ فحين يأتي اليوم الذي يرون فيه الملائكة، وهو عند سكرات الموت، حين الاحتضار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: أُخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، فتبشرهم الملائكة بالنار، وغضب العزيز الجبار. وكذلك يوم يرون الملائكة في القبر، حين سؤالهم: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وكذلك يوم البعث والنشور، فعند ذلك يشعرون بالخيبة ﴿ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ فحين رؤية هؤلاء المجرمين للملائكة ذلك اليوم يتقرر حينها بعلم اليقين أنه لا بشرى خير أمامهم.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥/١٣)

بما يفيد المبالغة في انتفاء الخير عنهم كلياً، وحصر مستقبلهم في العذاب والإهانة، وبما يثبت تقرير ما هو ضد الخير، وهو العذاب المهين أمامهم. وسماهم الله تعالى بالمجرمين ﴿ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ وصفاً وتقبيحاً لهم بما يستحقون. فأعمالهم وأقوالهم إجرام عظيم في حق نبيهم، وفي حق كتاب ربهم، وفي استعظامهم لأنفسهم على الحق المبين. وحينها تقول لهم الملائكة حرام عليكم البشارة بالخير ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ قال الطبري رحمه الله تعالى: يعني الملائكة يقولون للمجرمين ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ حراماً محرماً عليكم البشرى أن تكون من الله[1] والحجر هو الحجز والمنع من الوصول إليه. فتتضافر الحسرة والندامة مع الرعب والخوف الذي يلقاه المجرمون منذ ساعة الاحتضار التي يبلغونها حين وفاتهم.

ثم يخبر الله تعالى عن مصير أعمالهم التي كانت منهم في الدنيا ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ وقصدنا وعمدنا إلى ما كان منهم من أعمال صالحة في الدنيا، كمساعدة محتاج، أو نصرة مظلوم ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ أي: باطلاً، لأنهم فقدوا الأساس الذي يقوم عليه العمل الصالح، وهو الإيمان والإخلاص؛ بأن يكون لله تعالى، وليس رياء ولا سمعة. فلا يقبل الله تعالى منهم خيراً، لأن أساسه باطل، بكفرهم، وتكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم. فيجعله الله تعالى ﴿ هَبَآءً ﴾ وهو الذي كهيئة الغبار. قال علي رضي الله عنه: شعاع الشمس إذا دخل في الكوة. وروي مثله عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة وغيرهم[2] وقال الطبري رحمه الله تعالى: الهباء هو: الذي يُرى كهيئة الغبار إذا دخل ضوء الشمس من كوة. يحسبه الناظر غباراً، وليس بشيء تقبض عليه الأيدي، ولا تمسه، ولا يُرى ذلك في الظل[3] وأما ﴿ مَّنثُورًا ﴾ فهو المتفرق والمبدد والمتناثر. فلا قيمة ولا وجود له ضمن أعمال الخير، فيكون مفقوداً باطلاً، لا حقيقة له كأعمال المؤمنين القائمة على منهج الله تعالى.

﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٢٧/١٧)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٢٦/٣)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٣١/١٧)

أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾

بعد بيان حال الكافرين وعذابهم يبين سبحانه وتعالى نعيم المؤمنين ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ ففي يوم القيامة سيكون حال المؤمنين الذين هم ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ سيكون حالهم ﴿ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا ﴾ في خير موضع يستقرون فيه. ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى وغيره عن ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا ﴾ أفضل منزلاً من المشركين بدخولهم الجنة ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ فلا يأتي في يوم القيامة وقت القيلولة التي في الدنيا إلا وأهل الحنة في الجنة، فيكونون في أحسن مقيل. قال عكرمة رحمه الله تعالى: إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. هي الساعة التي تكون في الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر، إذا انقلب الناس إلى أهليهم للقيلولة[١] قال الزجاج رحمه الله تعالى: المقيل: المقام وقت القائلة، وهو النوم نصف النهار. وقال الأزهري رحمه الله تعالى: القيلولة عند العرب: الاستراحة نصف النهار؛ إذا اشتد الحر، وإن لم يكن مع ذلك نوم. وقال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما: لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار[٢] قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فإن قال قائل: وهل في الجنة قائلة؟ قيل معنى ذلك: وأحسن فيها قراراً في أوقات قائلتهم في الدنيا[٣] فلا يأتي وقت القيلولة التي في الدنيا إلا وهم في الجنة. وإنها والله لمنزلة عظيمة، وحال كريم. اللهم إنا نسألك الجنة.

ثم ينتقل البيان العظيم إلى الإخبار عن هول وعظمة يوم القيامة، حين تنشقق السماء بالغمام، وتنزل الملائكة ذلك اليوم ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ ففي يوم القيام تتشقق السماء بالغمام. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: تشققها بالغمام: أنها تتشقق عن الغمام[٤] وهو السحاب الأبيض، فتنزل الملائكة. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: ولما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها، جعل الغمام كأنه

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٢٧/٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١/٦)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٣١/١٧)

(٤) الشوكاني، فتح القدير (٧١/٤)

الذي تشقق به السماء. وذكر كذلك: أن السماء تتفتح بغمام يخرج منها[١] ليفيد هذا البيان الحذر والإنذار والاستعداد لذلك اليوم بالطاعة. وقد أكد تبارك وتعالى نزول الملائكة بالمفعول المطلق ﴿ تَنزِيلًا ﴾ تأكيداً يفيد الحقيقة التي سترونها، وتعيشونها أيها المخاطبون. وورد نزول الملائكة بصيغة المبني للمفعول ﴿ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ وهو الذي لم يُذكر فاعله، وهو الله تبارك تعالى، وذلك لإظهار شأن نزول الملائكة من السماء، بأنه أمر مهيب يوم ترون ذلك النزول العظيم، الذي يدل على عظمة الخالق، والمدبر لهذا الكون. فاستعدوا لهذا اليوم، واحذروا من الغفلة عنه، وفيه تحذير ووعيد للمتكبرين، والْمُصِرّين على كفرهم وعنادهم. وكل ذلك البيان هو من لطفه عَزَّ وجل بعباده، من أجل طاعته، والحذر من معصيته، وإثبات تحقق عذابه على من عصاه.

ثم يخبر الله تعالى بانتفاء كل مُلْكٍ في ذلك اليوم، مما يملكه الناس ويحوزونه، فقد انتهى ذلك الشأن ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ فالملك الحق الذي لا يزول ولا يحول هو ملك الرحمن تبارك وتعالى، بينما مُلك عباده قد زال وانتهى وانتفى منهم في ذلك اليوم. وفيه حصر وإثبات الملك لله تعالى ذلك اليوم. لإفادة انتهاء ملكية العباد من الدنيا، من جميع ما رزقهم الله تعالى وأعطاهم ومنحهم ومكنهم منه، فإنه لم يبق لهم من ذلك شيء يتصرفون فيه. وبقي المُلك الحقيقي الثابت الذي لا يزول ولا يحول لله تعالى، مالك الملك القدوس العزيز الحكيم سبحانه وتعالى.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى وصف حال الكافرين ذلك اليوم ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ فيكون ذلك اليوم على الكافرين يوماً شديداً صعباً، إذ يشتد عليهم شدة عظيمة، لما فيه من الأحوال والأمور العسيرة عليهم. وقد أظهر هذا الوصف مِن العسر بأسلوب الحصر والقصر، بأنه مقصور على الكافرين، ومحصور عليهم ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ ليس على غيرهم، بل عليهم فقط. بما يفيد أن ذلك اليوم على المؤمنين سروراً، لما سيؤولون إليه من دخول الجنة. وفيه زيادة توجيه وتحذير وتعليم للعباد بما سيكون عليه ذلك اليوم.

ثم يذكر الله تبارك وتعالى المزيد عن حال الكافرين ذلك اليوم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ فيكون حال الكفرة في ذلك اليوم العظيم

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٣/٢٧٣_٢٧٤)

من شدة الحسرة والندامة أنهم يعضون على أيديهم من شدة حسرتهم ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ فيعبرون عن حسرتهم وندامتهم وأسفهم بعض أيديهم، من شدة ما أصابهم من الغيظ، لأن شدة الندم تجعل النادم يعض على يديه أسفاً على تفريطه الذي لا يستطيع معالجته، ففات عليه كل ما يعده عن العذاب الذي هو في عرصاته ومقبل عليه. فبعد أن أظهر بالفعل عن مشاعره، بعض اليدين، يُظهر ويبين مشاعره لفظاً وتعبيراً من شدة ما أصابه من الغيض، فيقول الله تعالى عما سيكون منهم ذلك اليوم ﴿يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ يتمنى لو أنه اتبع رسول الله، صلى الله عليه وسلم عندما كان في الدنيا، واتخذت معه طريقاً إلى الهدى الذي أنجو به من هذا العذاب المهين. بما يفيد: خذوا السبيل المستقيم من الآن، وأنتم أحياء، قبل أن تأتي ساعة الندم، والحسرة التي لا يمكن لكم معالجتها أبداً. وفي هذا تعليم وبيان، وإنذار وتحذير لكل حي ما بقيت الدنيا. وكلمة ﴿يَـٰلَيْتَنِى ﴾ إعلان من الكافر، بصيغة النداء، الذي يفيد شدة الندم والحسرة التي لا علاج لها. وهو نداء يعبر عن استحالة تدارك الأمر. وسماه الله تعالى بالظالم ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ لأنه ظلم نفسه، بتوريطها في هذا الهلاك والعذاب العسير الشديد، وهو ظالم لرسوله بتكذيبه، وظالم للقرآن بعدم تصديقه، وظالم للحق، ولشريعة الله تعالى، وظالم لغيره ممن اقتدوا به. فهو ظالم من كل وجه.

وتتكرر الحسرة من الظالم على من اقتدى وتأسى به من الظالمين أمثاله ﴿ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ فينادي نداء الهالك ﴿ يَـٰوَيْلَتَىٰ ﴾ وهي المعبرة عن هلكته وسوء حاله ومآله، فينادي بما هو سائر وصائر إليه من العذاب. وهو تعبير عن المصير المؤلم الذي لا يمكن له أن يحيد عنه. ثم يذكر الخليل والصديق والصاحب الذي كان يتعاضد معه على الكفر وبطر الحق ﴿لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ يتمنى لو أنه لم يتخذ ذلك الصاحب صديقاً له في طريق الغواية من الكفر والضلال. والخليل من الْخُلَّة، قال الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى: والْخُلَّة: المودة، لأنها تتخلل النفس، أي تتوسطها. أو لأنها تَخُل النفس، فتؤثر فيه، تأثير السهم في الرمية[1] فاختيار دلالة الخليل مقصودة لعمق دلالتها، ولتبين عمق العلاقة والأثر بين الظالم وبين صديقه الذي كان سبباً في إضلاله عن الحق.

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (١٥٣)

ومن دقائق السياق أن ذكر البيان لفظة ﴿فُلَانًا﴾ كناية أو بدلاً عن اسمه، ليستوعب كل كافر واسم خليله الذي كان يصادقه ويسايره في غوايته، من شياطين الإنس والجن. كما جمع السياق بين مرغوب فات على الظالم بتضييعه وتفويته، وتفريطه فيه، وهو ﴿يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ وبين مكروه أصابه بسبب الملازمة والمصاحبة والاقتداء، وهو ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ مما يبين أهمية الصاحب، وأثره في دين وأخلاق صاحبه ومخالطه ومعاشره. وأهمية طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، والبعد عن الخليل الفاسد، وإدراك وفهم أن الدنيا قصيرة، والحساب والجزاء قريب.

ثم يعلل هذا الظالم ويبين ما كان من خليله وصديقه ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾ لقد صرفني هذا الصديق الذي اتخذته خليلاً عن القرآن، وعن الإيمان، بعد أن وردني ذلك من الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد أجمل جميع ما جاء عن الله تعالى في مسمى ﴿ٱلذِّكْرِ﴾ الذي يشمل القرآن الكريم، وجميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، فهو لفظ جامع لكل ذلك. وفي اختيار كلمة ﴿ٱلذِّكْرِ﴾ ما يشير إلى أن جميع ما جاء عن الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم، هو ذكر، يذكرك بما يجب عليك، ويذكرك بما هو شر عليك، ويذكرك بكيفية ذكر الله تعالى، ويذكرك بالحق والخير. ثم في جملة ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ ما يفيد الاعتراف بأن الحق قد وصله، ودعوة الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاءته، وعرف الحق والحقيقة، غير أنه اختار خليله من فئة الكفرة الظالمين.

ثم ختم تبارك وتعالى الآية الكريمة ببيان مكر الشيطان. بما يفيد التحذير منه ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾ قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وها هنا تم الكلام، ثم قال الله تعالى ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾ يعني بالإنسان: الكافر. ﴿خَذُولًا﴾ يتبرأ منه في الآخرة[1] فلا ينقذه من العذاب حين ينزل به. فإن الشيطان يوالي من يواليه من أهل الكفر في الدنيا، ويزين له سوء عمله، حتى يخذله عن الحق، ويستعمله في الباطل، وأما في الآخرة فإنه يخذله، فلا يدافع عنه، ولا يستطيع إنقاذه مما حل بالكافر من العذاب. مما يفيد التحذير من الشيطان ووسوسته، وتزيينه المنكر والكفر. فاجتنبوا ما حذركم منه ربكم تبارك وتعالى.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣/٦)

وبعد أن تأسف وتحسر الظالمون على ما فرطوا من الإيمان في الدنيا، يؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بشكواه لربه مما كان من إعراض قومه المشركين عن لقرآن العظيم ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا ﴾ يخبر الله تعالى بشكاية الرسول صلى الله عليه وسلم من إعراض قومه عن لقرآن الكريم. وذلك حين يعض الظالم على يديه، قال ابن جرير رحمه الله تعالى: وقال الرسول صلى الله عليه وسلم يوم يعض الظالم على يديه: يا ربي إن قومي الذين بعثتني إليهم لأدعوهم إلى توحيدك، اتخذوا هذا القرآن مهجورا[١] وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وهذا عند كثير من العلماء: أنه يوم القيامة[٢] ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ ﴾ منادياً ومخاطباً ربه عَزَّ وجل بالنداء، وبالربوبية ﴿ يَـٰرَبِّ ﴾ فأفاد بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم خطاب شكاواه لربه تبارك وتعالى بالنداء ﴿ يَـٰرَبِّ ﴾ من أجل التعظيم والإجلال، والتبجيل لله تعالى، والترجي والاستعطاف لربه عَزَّ وجل مما حصل منهم، من غير تقصير منه صلى الله عليه وسلم. ﴿ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا ﴾ إن قومي هجروا القرآن بتركهم له، وترك تصديقه، فإن قومي الذين بعثتني فيهم رسولاً لهم بالقرآن العظيم ﴿ ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا ﴾ فإن تعاملهم مع القرآن العظيم كان تعامل الهجر والنبذ والصد، بل والقول فيه بغير الحق، من أنه أساطير الأولين، وأنه شعر، وسحر. بما يفيد الإعراض والتولي، فخالفوا ما يجب عليهم، من التأمل والتدبر، وتَعَقُّل ما فيه من الحجج والبراهين التي تهديهم وتلزمهم بقبوله وطاعتك يا ربنا وخالقنا. وبما يفيد التعجب منهم بإعراضهم عن القرآن الكريم.

ومن دقائق البيان: استخدام اسم الإشارة في ذكر القرآن وتسميته ﴿ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ ليفيد تعظيم القرآن الذي كان الأولى بهم أخذه، والتمسك به، والانقياد لأحكامه وتشريعه. ولكنهم نبذوه وهجروه. وهجر الإنسان للقرآن له حالات وأنواع، ذكرها العلماء، ومنهم ابن كثير رحمهم الله تعالى[٣] فَمِن هَجْرِهِ عدم الإيمان به وتصديقه. وكذلك ترك سماعه وتلاوته، كما أن من هجره ترك العمل به، وفي ترك تدبره وتفهمه نوع من هجرانه، كما أن العدول عنه إلى غيره هجر لكتاب الله تعالى. فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل القرآن تدبراً وتلاوة وعملاً به، ودعوة إليه.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٤٢/١٧)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣/٦)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٢٩/٣)

وقد أكد هجرانهم وإعراضهم بنون التوكيد ﴿إِنَّ قَوۡمِى﴾ والتي سبقت المشكو منهم، وهم قومه صلى الله عليه وسلم. وبما يفيد: إظهار عنادهم. كما اشتمل البيان على أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد نعتهم بأنهم أقرب الناس إليه ﴿قَوۡمِى﴾ بما يدل على أنه كان الأولى بهم سماع القرآن، وسماع دعوته، خاصة وأنهم أعرف الناس بسيرته صلى الله عليه وسلم قبل بعثته، فيعرفون صدقه، وأمانته. كما أن في وصف ما كان منهم بالفعل ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ أي: أنهم عرفوا ما فيه، وتعاملوا معه بالهجران ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ فبالرغم من ذلك نبذوه ولم يؤمنوا به. فهو نبذ معانده واستكبار. وفي هذا البيان إنذار لما سيكون من محاكمة ومحاسبة الله تعالى لعباده يوم القيامة، وما سيكون من حال الظالم الكافر، وما سيكون من النبي صلى الله عليه وسلم تجاه قومه الذين ما جربوا عليه كذباً قط، ولا يعرفون عنه إلا الصدق والأمانة، ومكارم الأخلاق، حتى أجمعوا أن يكون لهم حكماً في رفع الحجر الأسود، لوضعه مكانه من الكعبة، عندما اختلف قومه في رفعه، وذلك لرغبة كل طرف في الحظوة بشرف رفع الحجر إلى مكانه في الكعبة، فحكم بينهم، ورضوا بحكمه صلى الله عليه وسلم. وذلك قبل البعثة النبوية الكريمة.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾﴾

ثم يخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وجميع الْمُخَاطَبين بسنة ابتلاء النبيين، بما يسليه ويعزيه، ويدفع عنه ما يجده من كربات رفض دعوته، ومن الأسى والحزن على قومه صلى الله عليه وسلم ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ يقرر الله تعالى سنة الابتلاء مع أفضل خلقه، وهم رُسُلَه، المبعوثون برسالة ربهم تبارك وتعالى إلى خلقه ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ وبمثل ما أنت فيه أيها النبي من شدة أعدائك المتمردين عليك، فإن الأمر كذلك كان مع من سبقك من الأنبياء. فإذا كان هؤلاء المرسلين يبتلهم الله تعالى بالمردة من المجرمين، فكيف ببقية عباده، فإن للمؤمنين تأسياً وقدوة بأولئك المرسلين، فيما يواجهون في حياتهم، وخاصة من يدعوا إلى الله تعالى. فإن هناك المبغض، وهناك الحاسد، وهناك الكاره للحق، وهناك المحب للباطل، فيعادون الصالح والصلاح، والحق والخير.

فبمثل ما جعلنا لك من الأعداء يا أيها النبي، بمخالفتهم لك، والوقوف ضد دعوتك الواضحة البينة بالحجج والبراهين، فكذلك هو شأن جميع المرسلين من قبلك.

وقد حدد وعَيَّنَ وأكد سبحانه وتعالى بأنه هو الذي قضى سنة الابتلاء ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا ﴾ وبمثل ذلك جعلنا الابتلاء لكل نبي. بما يدل ويفيد أنه لو شاء الله تعالى لمنع ذلك، فليس عداوة هؤلاء هو خارج عن إرادتنا ومشيئتنا. ليتبين أن الله تعالى مالك الملك، ولا يحدث في الكون من أحداث إلا بإذنه وتحت مشيئته، فلا يحدث في الكون ما يخرج عن مشيئته عَزَّ وجل. وكلمة ﴿ عَدُوًّا ﴾ تفيد المعادة، والمعاندة، والمضادة التي تسير في عكس الاتجاه، مع شتى أنواع أسبابها: من الحسد، وبغض الحق، والكبرياء، وغير ذلك من علل وأسباب وألوان وأشكال ومقادير قوة العداوة. كما تفيد دلالة ﴿ عَدُوًّا ﴾ الكره والبغض للنبيين، ومنهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وسماهم الله عَزَّ وجل بالمجرمين ﴿ مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ إثبات لما اتصفوا به من الإجرام، وهو فعل الذنوب والجنايات والمعاصي إلى أقصى ما يستطيعون، فلا يردهم شيء عنها. مما يدل على أنه في كل جماعة وأمة من البشر مجرمين، قد قست قلوبهم، فأصبحوا محبين للباطل، ومعاندين ومعادين للحق وأهله، فيفعلون ما يحلو لهم من الجرائم البشعة.

ثم يبين تبارك وتعالى ما يكون منه لعباده من مشيئة الهداية، ومن النصر، بما يزيد من تسلية النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وتقوية إرادتهم ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ فيكفيك ويكفي من آمن معك من المؤمنين أن ربكم سبحانه وتعالى يتولى شأن الهداية، والتوفيق، بما تقتضي حكمته وإرادته عَزَّ وجل. كما يكفيكم أن النصر بيده جَلَّ جلاله. وفي هذا تقوية لقلوبهم، وتحفيز لهم نحو الصبر والمثابرة، مع قوة الرجاء والأمل بأن يزيد عدد المؤمنين، ويتحقق لهم النصر والتمكين.

وفي هذا البيان من قوله تعالى ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ ما يفيد تقوية إرادة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن الله تعالى هو الذي يكفيك أيها الرسول كل أمر وشأن، وبما يعطي دلالة المعية، بأنه معك بالنصر والتمكين والتأييد. مما يفيد أن الله تعالى هو الكافي، وهو الناصر، فلا تحمل هم هداية غيرك، فما عليك إلا الأخذ بالأسباب، والدعاء، والالتجاء إلى الله الكافي سبحانه وتعالى. وألا تتعلق بالأسباب من حيث قوتها وقلتها، وكثرتها، بل التعلق بالله تعالى أولاً مع الأخذ بالأسباب ثانياً. فهو الذي إذا أراد شيئاً كفاك في تحقيقه. مما يفيد المؤمن في حياته، وفي تربيته، وفي دعوته، ونصحه، وفي محنه، وفي جميع ضروب الحياة، بأن الذي عليه هو الأخذ بالأسباب، وبما أوجبه الله تعالى عليه من المهام، والقيام بالمسؤوليات، وألا يفرط فيها، ويتوكل على الله تعالى، معتقداً اعتقاداً جازماً بأن الله تعالى هو الكافي في كل شأن، فيرجوه،

ويتوسل إليه، ويسأله ما يحب، وأن يدفع عنه ما يكره. ومن ذلك النصر والتأييد في كل صغير وكبير. فإن الأمر بيده سبحانه وتعالى.

ثم يعود البيان الكريم إلى مقترحات المجرمين من لذين كفروا ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلًا ﴾ فقال الذين كفروا برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةً وَٰحِدَةً ﴾ فيقول الكفرة: هلا أنزل عليه القرآن دفعة واحدة. فكأن امتناعهم عن الإيمان هو بسبب نزول القرآن العظيم مفرقاً. فهذا دليل على استماعهم له، وأن الحجة قامت عليهم. وهو تعليل اعتراض منهم على نزول القرآن مفرقاً، فيعترضون على ذلك، جهلاً منهم بالحكمة من نزوله مفرقاً، فقدموا هواهم وعقولهم على حكمة الله تعالى العظيمة. مما يدل على خطورة تقديم العقل على الشرع. فيريدون نزوله دفعة واحدة. مما يدل على غفلتهم، وتماديهم في الباطل، وسُوء أخلاقهم وأدبهم مع ربهم سبحانه وتعالى، فيقترحون ما يريدون على سبيل العناد، وتحري المناكفة والتكذيب والطعن. فيبين الله تعالى سبب إنزاله متفرقاً ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ هو من أجلك أيها النبي صلى الله عليه وسلم. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وجاء في بيان حكمة إنزال القرآن منجماً بكلمة جامعة، وهي ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ لأن تثبيت الفؤاد يقتضي كل ما به خير للنفس[1] فإن تثبيت قلبك كان أحد أسباب نزول القرآن مفرقاً، حتى يقوى قلبك على ما تقابله وتواجهه من مشاق الدعوة، وتبليغك الرسالة، وأن يحصل بإنزاله مفرقاً حفظ القلب له، ومعالجة ما تواجه، ويواجه من معك من المؤمنين، فيجدون فيما ينزل من القرآن علاجاً لقضاياهم المختلفة. وفي هذا دليل على العناية الخاصة من الله تعالى برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، مما يدل على منزلته ومكانته عليه الصلاة والسلام عند ربه عَزَّ وجل. كما يدل ذلك على عظيم حكمته جَلَّ في علاه. ومن فوائد بيان الله تعالى هو: أن القرآن يُثَبِّت الفؤاد على الحق، ويزيل الوساوس والارتباك والاضطراب، والشك. فإنه قوة لقلب المؤمن، يعالج به نفسه من كل داء. فالتثبيت يعني الاستقرار والثبات.

ثم قال سبحانه وتعالى عن وصف القرآن العظيم ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلًا ﴾ أي: بيناه وفصلناه تبياناً وتفصيلاً واضحاً لا غموض فيه، والترتيل في القراءة هو: الترسل والتثبت. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أي: أنزلناه على الترتيل، وهو التَّمَكُّث الذي يُضاد العجلة[2] فهو يشمل وضوح المضمون والمحتوى، وكذلك نزوله متفرقاً، وأيضاً ما يكون من تلاوته من جبريل عليه السلام مرسلاً ومجوداً على النبي صلى الله عليه وسلم. ومن

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٧١/٨)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤/٦)

دقائق البيان أن الله تعالى أكد ذلك بصيغة المفعول المطلق ﴿تَرْتِيلًا﴾ فلم يكتف البيان الكريم بدلالة ﴿وَرَتَّلْنَاهُ﴾ بل أكده عزَّ وجل بالمفعول المطلق. فهو بيان استوفى كمال القرآن الكريم من كل وجه، ترتيلاً، وفصاحة وبياناً ووضوحاً وتفسيراً، وحجة وقوة وبرهاناً، استوفى الكمال من كل وجه، وانتفى عنه ما لا يليق بكلام الله العزيز الحكيم.

ثم يبين سبحانه وتعالى قوة ما أنزل على رسوله من حجج وبراهين، تدحر كل حجج أعداء الدين من الكفرة المجرمين ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ فيوثق الله تعالى وطمئن قلب نبيه صلى الله عليه وسلم، بأنه معه بالتأييد والنصرة، وإبطال أباطيلهم ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ فلا يعارضونك الكفرة المجرمون بشبهة وباطل متهافت ومتساقط بالفساد والباطل الذي يريدون به معارضة الحق وإبطاله ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وسَمَّى الله سبحانه وتعالى ما يأتون به من الباطل بالمثل ﴿بِمَثَلٍ﴾ ليستوعب كل ما يضربونه من الأباطيل، لإبطال ما جئتهم به. فيتلمسون به الطعن في القرآن العظيم، وفي رسالتك وشخصك ونبوتك. فلا يعارضونك الكفرة المجرمون بشبهة وباطل ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ إلا وزودناك بالحق، الذي يجعلك ترد عليهم به، فيُبطل الباطل ويفسده، ويدحره. أي: إلا رددنا عليهم جواباً بالحق؛ فيدمغ الباطل ويمحوه ويزيله. بما يفيد أنه رداً متصفاً بالقوة والصدق والثبات الذي يزهق به الباطل ويتلاشى، ويتطاير.

ثم يزداد البيان في وصف حُسن الرد وكماله ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي: وأفصح وأقوى بياناً وتفصيلاً وتفسيراً من شبهتهم المتساقطة. بما يفيد امض أيها النبي في مسيرتك ورسالتك وطريقك، ولا تلتفت إلى شبهاتهم وأباطيلهم. وقد سمى الله سبحانه وتعالى ما رَدَّ به عليهم من الحق ﴿تَفْسِيرًا﴾ ووصفه بكمال الْحُسن ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ليكشف ويوضح ما أبطنوه من الباطل، الذي عَرَّاه الحق الْمُنَزَّل من الله تعالى، فكان بذلك أحسن تفسيراً وتأويلا. وفي هذا عناية بالرسول صلى الله عليه وسلم، وتسديده، ونصره على أعدائه من كل وجه. ومن جليل الفوائد أن على صاحب الحق أن ينشغل بالحق، وإيضاحه، وإبطال ما يكون من الْشُّبَه، وأن يتسلح بالعلم، وأن في القرآن الكريم العلم الذي يكشف ويجلي الباطل ويُعَرِّيه.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما سيكون عليه حال المجرمين من الكفرة في الآخرة من العذاب المهين، وسُوء المصير، فيقول عَزَّ وجل ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ

سَبِيلًا ﴾ فإنهم يوم القيامة يُسْحَبُون ويُساقون على وجوههم إلى جهنم، وهو شر مكان ومقر يقرون فيه، وأضل طريق يسلكونه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ واصفاً تبارك وتعالى ما يؤولون إليه بأنهم وما سيكونون فيه ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ فليس هناك أشر من المكان والمقر الذي سيكونون مستقرين فيه، وهو جهنم وبئس المصير. وكلمة ﴿شَرٌّ﴾ تفيد أنه الأعلى شراً، والذي ليس هناك أشر منه. لإفادة المبالغة في وصف حالهم في نار جهنم، وحال المكان الذي سيكونون فيه، وهو جهنم؛ بأنه الأشر مكاناً، فليس هناك مكان أشر منه. مما يبين عظيم ما سيكونون فيه من العذاب المقيم.

ويزداد الوصف بأنه ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ فليس هناك أكثر ضلالة مما يسيرون فيه إلى جهنم وبئس المصير. فكما ضلوا عن سبيل الهدى في الدنيا، فسيكونون في أضل طريق، وأوعره، وأشقه في الآخرة. وفي أشر مكان يصلون إليه وهو جهنم وبئس المصير. وذلك لشدة ما سيكونون فيه من العذاب المهين. وجاء البيان بالأعلى وصفاً ﴿وَأَضَلُّ﴾ ليفيد المبالغة فيما هم فيه من الطريق الذي يُساقون ويُسحبون فيه، ووعورة وشدة وقسوة ما هم فيه من الإهانة، ليصلو إلى جهنم وبئس المصير. فانحصر الشر والضلال فيهم، وأنهم أهل الشر والضلال لا غيرهم. وفي هذا تحذير لهم، ولكل كافر من سوء المصير، وأن عليهم اغتنام فرصة الحياة الدنيا، للفوز بالحياة الآخرة. وهذه نعمة من الله تعالى أن يوضح مسار من كفر به، ليختار بنفسه الطريق الذي يريد.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ
وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا
بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ
ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ
إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا
لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ
ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ
يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان ما واجهه الرُّسُل من أقوامهم المكذبين، فكانت عاقبة المكذبين هي الهلاك والدمار، بما يفيد التحذير للمشركين وغيرهم من الكفر، ومحاربة الرسول صلى الله عليه وسلم، ودين رب العالمين. وأورد تبارك وتعالى شأن موسى عليه الصلاة والسلام مع قومه، وما كان منهم. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ فبدأت الآية الكريمة بحرف التحقيق والمتصدر بلام القسم ﴿ وَلَقَدْ ﴾ لتأكيد ما بعده من البيان، لاستعظام وتعظيم ما حصل. ولقد أعطى الله تعالى عبده موسى عليه السلام ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي: التوراة، لتكون هداية لقومه. ثم يخبر سبحانه وتعالى بمزيد فضله على موسى عليه السلام ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ أي: مُعِيناً وظهيراً، وسنداً لموسى عليهما الصلاة والسلام. فبفضله تبارك وتعالى جعل مع موسى أخاه هارون وزيراً له، ليكون عوناً وعضداً في تبليغ رسالة الله تعالى. والوزير من المؤازرة والمعاونة. فكان هارون مع موسى عليهما السلام نبياً ورسولاً. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والتعريض هنا إلى تأييد موسى بهارون تعريض بالرد على المشركين عندما قال الله تعالى عن مطالبتهم واقتراحهم ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ فإن موسى لما اقتضت الحكمة تأييده، لم يُؤيَّد بملك، ولكنه أُيِّدَ برسول مثله[١] كما أشار ابن عاشور رحمه الله تعالى إلى علة وسبب البدء بقصة موسى وهارون عليهما السلام: لأنه أقرب زمناً من الذين ذُكِرُوا بعده، ولأن بقايا شرعه وأمته لا تزال معروفة عند العرب. وقد تم بسط ذلك في سورة طه. وفي هذا الإخبار من الله تعالى تسلية وتقوية للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين معه. وفي نفس الوقت هو تحذير للمشركين من أن يصيبهم ما أصاب فرعون وقومه الذين كذبوا بموسى عليه السلام.

ثم يخبر الله تعالى بمضمون ما أرسل به موسى وأخاه هارون عليهما الصلاة والسلام ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ فقلنا لموسى وهارون اذهبا إلى القوم الذين اتصفوا بتكذيب آياتنا من الحجج والبراهين، وهم فرعون وقومه. فذهب موسى وهارون إليهم، ولكنهم كابروا وعاندوا الحق، فعصوا، وأنكروا، وكذبوهما، واتهموا موسى بالسحر كما اتهم المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسحر. فتمادوا في طغيانهم. ولَمَّا لم يستجيبوا حل بهم العذاب الشديد، الذي وصفه سبحانه وتعالى بأشد الوصف والبيان ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ فالتدمير هو أشد الهلاك، وذلك بإغراقهم في البحر. وبما يفيد الإبادة والهلاك الذي لا تقوم لهم قائمة بعده. بل من شدته أن ورد عَزَّ وجل البيان بصيغة المبالغة، بإعادة الفعل مرة

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٧٦/٨)

أخرى ﴿ فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ﴾ لأن ﴿ تَدۡمِيرٗا ﴾ مفعول مطلق، يفيد تعظيم الفعل الأصلي، الذي هو التدمير. وهذا من بلاغة الوصف، وتصويره وبيانه كما حصل.

ثم ينتقل البيان من الله سبحانه وتعالى إلى قوم نوح المشابهين في هيئة وصورة الهلاك لفرعون وجنوده، وهو الغرق ﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ فقوم نوح لما حصل منهم الكفر والتكذيب لرسولهم ﴿ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ ﴾ فأهلكهم الله تعالى بالغرق ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗ ﴾ وجعلناهم عبرة وموعظة لغيرهم من بعدهم. وسمى الله تبارك وتعالى هلاكهم آية لغيرهم. والآية هي الحجة والدليل والبرهان، فهلاكهم دليل وبرهان على أن مصير كل من كذب الرسول فهو الهلاك. بما يفيد هل أنتم معتبرون بما حصل لهم، فتنتهوا عن تكذيبكم لرسولكم محمد صلى الله عليه وسلم، أو تنتظروا أن يحل بكم العذاب المهين كما حل بقوم نوح عليه السلام في الدنيا؟ وأما في الآخرة فقد أعد الله عَزَّ وجل لهم ما يستحقون من العذاب الشديد ﴿ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ فقد هيئنا وأعددنا للظالمين الكافرين عذاباً مؤلماً من شدته. وورد البيان بصيغة العموم ﴿ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ ليشمل قوم نوح عليه السلام، وكل من اتصف بالظلم من قبل ومن بعد، فيشمل كل ظالم.

ومن جميل البيان، وعظيم دقائقه أن ورد الرسول بصيغة الجمع ﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ ﴾ والذي جاءهم رسول واحد، وهو نوح عليه السلام. فمن فوائد ذلك أن مُكْثَه بينهم طويلاً، ألف سنة إلا خمسين عاما، فكأن مكثه بهذه الحياة الطويلة يماثل تعاقب عدد من المرسلين على أجيالهم التي تعاقبت في حياته. كما أن من كذب بالرسول الواحد فقد كفر، وكان بمنزلة من كذب بجميع الرُّسُل. وهذه من دقائق الإعجاز في البيان. فسبحان من جعل الإعجاز في كتابه آية ودليلاً على أنه من عنده تبارك وتعالى.

ثم أجمل تبارك وتعالى عدداً لا حصر لهم من المكذبين، ابتدأهم بعاد وثمود وأصحاب الرس، وأضمر البقية إجمالاً، ليدل على كثرتهم، فقال تعالى ﴿ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ﴾ لقد بسط الله تبارك وتعالى ذكر تلك الأمم التي عينها في هذه الآية الكريمة في مواضع أخرى من القرآن العظيم، وأوجز البيان هنا بما يقتضي مقام العظة، وذلك لإبراز وإظهار العبرة للمشركين وغيرهم، وإنذاراً لهم من أن يصيبهم ما أصاب تلك الأمم التي لا تخفى عليهم أماكنهم، ولا تخفى عليهم قصصهم، لما يتناقله الناس بينهم عن شأنهم.

وقد عَيَّنَ عَزَّ وجل قوم عاد وثمود وأصحاب الرس كمثال للأقرب منهم ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ ﴾ وأصحاب الرس كما قال الطبري رحمه الله تعالى: هم قوم كانوا على بئر. وذلك أن الرس في كلام العرب: كل محفور؛ مثل البئر والقبر، ونحو ذلك[١] وبعد تعيين قوم عاد وثمود وأصحاب الرس، أجمل جَلَّ جلاله الباقين لكثرتهم، ﴿ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ﴾ أي: وأهلكنا قروناً، وهي الأمم التي عاشت ﴿ بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ﴾ أي: بين عاد وثمود وأصحاب الرس. وتفيد كلمة ﴿ وَقُرُونَۢا ﴾ الجمع والتعدد، والقرن هو الأمة من الناس، وهم أهل كل عصر، وفي الحديث ما يدل على ذلك (خير الناس قرني)[٢] وكلمة ﴿ كَثِيرٗا ﴾ تؤكد وتبين كثرة الأمم الهالكة التي أهلكها الله تعالى بسبب كفرهم، والتي لا يعلم عددهم إلا الله عَزَّ في علاه. وفي هذا تهديد وتحذير للمشركين ولجميع الكفرة من أن يكون مصيرهم مثل مصير تلك القرون من الهلاك والدمار.

ثم يبين سبحانه وتعالى رحمته وعدله مع عباده، فلا يعاقب إلا بعد أن يبين لهم سبيل الهدى والرشاد، بالحجج والبراهين، والأدلة القاطعة ﴿ وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا ﴾ فإن كل أمة من الأمم الهالكة قد زودها ربنا تبارك وتعالى بالأمثال الكفيلة بإرشادهم إلى طريق الحق والخير والرشاد. وتفيد كلمة ﴿ وَكُلّٗا ﴾ أن الجميع كلهم من الأمم السابقة ﴿ ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ ﴾ أي: تحقق لهم كمال ما يرشدهم من الأدلة والبراهين الواضحة. ومن دقائق البيان إفراد المضروب لهم المثل ﴿ لَهُ ﴾ ليفيد لكل أمة حققنا فيها الوعظ بضرب المثل الذي يلزمها الاتعاظ به.

وضرب المثل وسيلة للتعليم والإفهام بطريقة عرض المشابه والنظير. فَبَيَّنَ اللهُ تعالى لكل أمة نتيجة من كفر، بواقع قد حصل، مشابه لما حصل منهم من الكفر، والصد عن الحق، ومحاربته. وهذا من عدل الله تعالى مع عباده. فلما كفرت تلك الأمم، عاقب كل أمة بما تستحق من الهلاك الذي أبادها ومزقها ﴿ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا ﴾ فكل أمة كفرت ﴿ تَبَّرۡنَا ﴾ أي: دمرناهم، وهو كناية عن قوة العذاب الذي فتتهم ومزقهم من قوته وشدته، إذ أكده سبحانه وتعالى بإعادة الفعل ﴿ تَتۡبِيرٗا ﴾ بصيغة المفعول المطلق الذي يفيد المبالغة في الإهلاك. وبالتالي فإن عليكم أيها المكذبون برسولنا محمد عليه الصلاة والسلام الاتعاظ، وأن تعتبروا بالأمثال

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٥٣/١٧)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٢٥١/٢) برقم (٢٦٥٢)

المضروبة لكم، حتى لا يُتَبِّرَكُم ربُكم تتبيرا. وفي هذا ترهيب وإنذار لهم، ولكل من كفر برسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما كان من المشركين الذين لم يعتبروا بما شاهدوا من آثار الأقوام الهالكة، ومنهم قوم لوط، وقوم صالح في الحجر ﴿ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ﴾ فلقد أتى المشركون على ديار الهالكين من قبل، ورأوا آثار العذاب الذي حَلَّ بهم. فيكشف بذلك سبحانه وتعالى عناد من عاند من المشركين، بل ورد وصف مجيئهم بصيغة الإتيان ﴿ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ ﴾ أي جاؤوا إليها، ورأوا بأعينهم ما حل بقرية قوم لوط ﴿ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ ﴾ فيُثْبِتُ سبحانه وتعالى أنهم مروا وشاهدوا مشاهدة مباشرة للقرية ﴿ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ ﴾ وهي: سدوم، قرية قوم لوط. والتي أُمطرت بالحجارة، فمجيئهم يحتم عليهم الاعتبار بها، وبما أصاب أهلها من العذاب.

ثم يوجه سبحانه وتعالى لهم سؤالاً بصيغة الاستنكار من عدم الاعتبار ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَا ﴾ سؤال يفيد التقريع والتوبيخ لهم من قوة عنادهم، وإصرارهم على الباطل، وتجاهلهم لما يرون مما حل بمن قبلهم من سوء العذاب، وذلك قصداً منهم. بما يفيد استنكار من لا يعتبر بما يمر عليه مما يُوجب الاعتبار، وكأن ذلك لا يعني لهم شيئاً البتة. ألم يأتوا إلى ديار العذاب ويشاهدونها في أسفارهم التجارية إلى الشام، فيعتبرون بعذاب الله على من عاند الحق، واستمر على كفره وطغيانه.

ثم يخبر عَزَّ وجل بالذي جرأهم على كفرهم وعنادهم، وهو ﴿ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ﴾ فقد كانوا مستبعدين أن يكون هناك بعث وحياة بعد الموت. فانتزع منهم ذلك الكفر بالبعث جانب الخوف من قلوبهم. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أي: لا يخافون بعثاً. هذا قول المفسرين[1] فهم كافرون بيوم البعث والحساب والجزاء، فلا يرجون ثواباً لأعمال الخير، ولا عذاباً لأفعال الشر، فركبوا المعاصي. مما يبين ويفيد أن من لا يؤمن بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، فإنه يتمادى في الشر، ليصنع ما يريد، دون أي اعتبار لأي شيء. مما يبين ويفيد أن الإيمان بالبعث والحساب والجزاء، يولد الخوف، والخوف رادع مهم في مسيرة الأمم. فمن لا يخاف يتجرأ على الحق، ويركب الباطل.

---

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/١٦)

وبعد أن عَرض الله تبارك وتعالى ما كان من الأمم الكافرة من التمرد على الحق، فأهلكهم عَزَّ وجل، يعود البيان الكريم إلى كشف حال الكافرين عند رؤيتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، وما يقومون به من الأذى والاستهزاء اللفظي ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُـزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ فهؤلاء الكفرة المكذبين حين يشاهدونك أيها النبي ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُـزُوًا ﴾ أي: ما يتخذونك إلا باستهزاء والسخرية، فليس شيء غير ذلك. فمن شدة أذاهم للرسول صلى الله عليه وسلم أن ورد البيان بأسلوب الحصر. إذ حصر الله تعالى أفعالهم القولية عند رؤيتهم النبي صلى الله عليه وسلم في الاستهزاء بالرسول عليه الصلاة والسلام ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُـزُوًا ﴾ ليس شيء آخر غير الاستهزاء. وهذا من شدة أذاهم، وقسوتهم على من عرفوه حق المعرفة بصدقه وأمانته، حتى أسموه بالصادق الأمين. فإنهم يستهزئون بك أيها النبي استهزاء مبالغاً فيه. فبعد أن كانوا يصفونه صلى الله عليه وسلم قبل البعثة بالصادق الأمين، يستهزئون به بعد بعثته رسولاً إليهم صلى الله عليه وسلم. مما يدل على الحسد والاستكبار. وهذا الاستهزاء هو صنف ونوع من أنواع أذاهم الحقير، بالتقليل من شأنه عليه الصلاة والسلام. فيؤذونه في حضرته ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ ﴾ كما يؤذونه في غيابه عليه الصلاة والسلام. دون أدب، ولا حياء. مما يبين ويفيد عظيم ما كان يوجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه. ومع ذلك يصبر ويحلم عليهم. ليعطي القدوة والأسوة المتألقة في منهجه العظيم صلى الله عليه وسلم.

قائلين على سبيل التحقير ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ فأوردوا استهزاءهم وتَنَقُّصَهم من مقامه صلى الله عليه وسلم بأسلوب السؤال الاستنكاري، وبأسلوب الإشارة ﴿أَهَـٰذَا ﴾ والذي يفيد الاستصغار والتحقير والتهكم. فيستنكرون نبوته ورسالته على سبيل التنقص. فكأنهم يريدون غيره، وهم الذين أقروا له بالصدق، وأقروا له بالأمانة، فيسمونه قبل نبوته عليه الصلاة والسلام بالصادق الأمين. حتى كانت صفة معروفة بينهم للنبي عليه الصلاة والسلام. مما يدل على الحسد والكبر الذي ملأ قلوبهم. الأمر الذي يفيد أن الحسد يقلب الموازين عند الحاسد وعند المتكبر. فيلزم المؤمن الحذر منه في جميع شؤونه وتعاملاته المختلفة.

ثم يعززون استهزاءهم الأول، بتشنيع وخطورة دعوته إليهم صلى الله عليه وسلم ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ فلقد قارب وأوشك أن يفتنا عن معبوداتنا من الأصنام. وقد أفاد مطلع الآية الكريمة قوة حجة النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ فقد قارب أن يصرفنا عن عبادة الآلهة من

الأصنام، بما يفيد قوة حججه وأدلته وبراهينه التي جاء بها من عند ربه صلى الله عليه وسلم، فأوشكوا أن يؤمنوا به وبرسالته صلى الله عليه وسلم. مما يدل على أنهم كانوا يقاومون الحق في نفوسهم بعد أن عرفوه؛ نتيجة لما في قلوبهم من الكبر والحسد. ثم يتفاخرون بثبوتهم على الباطل أمام الحق الواضح لهم، حتى أنهم كادوا يعتنقونه.

ومن قُبح فكرهم أن أوردوا دعوة النبي عليه الصلاة والسلام بالضلال ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ فكلمة ﴿لَيُضِلُّنَا ﴾ تسمية منهم لمنهج النبي صلى الله عليه وسلم، ولمضمونه ومحتواه، وأفادت جملة ﴿ إِن كَادَ ﴾ التي هي من أفعال المقاربة، أنه قد أوشك الوصول إلى إخراجنا من عبادة الأصنام ونفيها، والكفر بها، والدخول في دينه. كما أسموا دين الله تعالى بالضلال ﴿لَيُضِلُّنَا ﴾ تمادياً في الباطل إلى أقصى درجاته.

فمن قوة جهادهم لأنفسهم على الثبات على كفرهم أن ورد قولهم ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ أي: حبسنا أنفسنا بالمجاهدة على بقائنا على عبادة آلهتنا. وبذلنا جهداً نفسياً أمام قوة الحجج والبراهين التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد بدأ البيان بحرف الامتناع ﴿لَوْلَآ ﴾ أي: أن صبرهم على عبادة آلهتهم هو الذي كان سبباً في بقائهم على عبادتها، وإلا لأصبحنا معه فيما يدعوا إليه مِنْ نبذ الأصنام، وتوحيد الخالق الرب تبارك وتعالى. كما تبين دلالة ﴿صَبَرْنَا ﴾ قوة المشقة التي كانوا يجاهدون أنفسهم عليها، لأن الصبر مقاومة ومجاهدة في تحمل المشقة والعناء. فهو بيان وكشف لحالة التأثر التي يفاخرون بها في مقاومتهم للحق. بينما هي طعن فيهم، وشهادة منهم على أنفسهم بقوة الحق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه عَزَّ وجل. وبيان لقوة حجج الله تعالى، وأنها كافية لكل أحد من الناس إلا من أبى. وأنهم قاوموها بصلابة الكاره لدين الله تعالى، والصاد عنه.

ثم يخبر الله تعالى بالنتيجة والحكم الذي سيصلون إليه، وذلك حين يرون العذاب، فيتيقنوا حينها من هو الأظل سبيلاً وطريقاً ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ فهذا تقرير من الله تعالى عن الوقت الذي يجعلهم يتيقنون ويعرفون من هو الأظل سبيلا. وقد أورده تبارك وتعالى على سبيل التهديد والتقريع، والتحذير مما هم فيه من العناد. فسوف يرى هؤلاء المكذبون بدين الله تعالى، والزَّاعمون أنهم على الحق، وأن دين الله تعالى هو الباطل، سيعلمون علم اليقين حين يرون العذاب بأعينهم، وهو ماثل أمامهم من هو الذي كان على الصواب، ومن هو الذي كان على الباطل، فيتحقق لهم علم اليقين ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

من هو الأبعد عن الحق والهدى وسلك طريق الضلال. أهم المؤمنون؟ كما كانوا يزعمون، أم هم الكافرون؟ فإن هذا بيان وتحذير عظيم لهم ولغيرهم من الله تعالى إلى أن تقوم الساعة.

ثم يلتفت خطاب الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم بصيغة التعجب ممن اتبع هواه، فأخذ دينه وفق ما يهواه ويميل إليه، من غير حجة ولا سند ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ أرأيت أيها النبي أولئك الذين إذا أحبت واستحسنت أهواؤهم شيئاً من المعبودات عبدوها. قال ابن عباس رضي الله عنه: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني، وترك الأول[١] فمعبوده وإلهه هو ما يتخيره لنفسه، ويهواه هواه. فهو سؤال تعجب واستنكار على هذه العقول التي جعلت المعبود وفق الهوى ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بِتَعْجِيبِهِ من تصرفاتهم الجاهلية، وذلك لمعالجة حرصه عليه الصلاة والسلام على هداية الجميع، وحزنه على من لم يستجب لدعوته صلى الله عليه وسلم.

ثم يُلحِقُه عَزَّ وجل باستفهام آخر ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ لإفادة: النفي والإنكار من أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم لهؤلاء وكيلاً وحفيظاً عليهم، فيحفظهم ويمنعهم من اتباع أهوائهم، ويجعلهم مؤمنين موحدين لربهم، فيعبدونه وحده بما شرع. فليس لك أن تنقلهم من عبادة ما يحبون ويهوون إلى عبادة الله تعالى. بما يفيد تمردهم وبُعْدَ غورهم في اتباع الهوى، فإنه لا يُرجَى خير منهم. ومما يفيد: أنك أيها النبي أكبر شأناً من أن تنشغل بهؤلاء المتمردين، فامض في دعوتك، ولا تلتفت إليهم، وتقف عندهم. وهذا يعطي دلالة بأن البعض منغمس في هواه إلى الدرجة التي لا أمل في هدايته إلا أن يهديه الله تعالى بهداية من عنده. وألا ينشغل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بهؤلاء عن غيرهم ممن يُرجى هدايتهم.

ثم يتوالى ويتتالى عليهم من الله عَزَّ وجل التوبيخ واللوم، وتشنيع صنيعهم، بالكشف عن حقيقة استعمالهم لنعمة العقل والحواس التي زودهم الله تعالى بها، وكان حقاً عليهم أن يستثمرونها فيما خُلقت له ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أتعتقد أن أغلبهم وأكثرهم يسمعون آيات الله تعالى سماع اتعاظ وتدبر، ليعقلوا ما فيه؟ فإنما هم إلا كالأنعام في عدم الانتفاع بما يسمعون، بل أضل من الأنعام.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٣٢)

فورد البيان الكريم بصيغة الاستفهام الاستنكاري، والتوبيخي لهم ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ أم تعتقد أيها النبي صلى الله عليه وسلم ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ فهو سؤال ينفي به سبحانه وتعالى ما إن كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتقد أنهم يسمعون ويرعوون إلى ما يتلوه عليهم من آيات الله تعالى، فيسمعونه سماع تدبر، فإن الأمر ليس كذلك ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ فهو استفهام ينفي ما إن كان يعتقد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يستمعون إليه سماع تدبر، لفهم الحق. مما يفيد أن الصاد استكباراً لا يتحقق منه سماع المتدبر والمتأمل والمتفكر، بل ذهنه مشغول بكيفية الرد. ويُقاس على ذلك أن كل من في ذهنه أمر، ولا يرى غيره أحسن منه، فإنه لا يستفيد مما يسمع، لأن قلبه مشغول بكيفية التكذيب والرد على ما يسمع. مما يتوجب على الإنسان أن يسمع، ويستوعب، فإن كان حقاً قبله، وإن كان باطلاً رَدَّ عليه.

ثم ينفي تبارك وتعالى عنهم كذلك التعقل ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ فإنهم لا يعقلون الدلائل، فكما نفى عنهم فهم الأدلة السمعية مما يُقال لهم، ويُتلى عليهم من القرآن الكريم، فإنهم بمثل ذلك في الجانب العقلي والتعقل. فنفى عنهم تبارك وتعالى إذعانهم الأدلة العقلية بتدبرها. فحالهم هو حال من لا يعقل. مما يدل على قوة صدودهم عن الحق، لا سماعاً، ولا إدراكاً للأدلة والبراهين العقلية. وبالتالي لا تظن أنهم سيدركون الحجج والبراهين، فيتعاملون معها معاملة العاقل الذي يريد الحق، لأن غلبت الهوى عليهم أعمت بصائرهم عن الحق وتعقله. مما يفيد أن المستكبر، والطاغية، يتجاهل ما يسمع، ويتجاهل الحجج والبراهين، من أجل ما في نفسه من الهوى، وما في عقله من محبة الدنيا. فحاله كحال من لا يعقل.

ثم يخبر الله تعالى بحقيقتهم من خلال بيان ما يشابههم من المخلوقات، وهي الأنعام ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فحالهم مع ما تدعوهم إليه كحال الأنعام التي لا تفهم ما يُقال لها، وبالتالي فإنهم لا يستجيبون لما يُقال لهم كما هي الأنعام لا تستجيب لما يقال لها ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ بل إنهم أشد في ضلالتهم من الأنعام، لأن الأنعام معذورة بما خُلقت له، وبقصور عقلها، وبالتالي فإنهم أكثر وأعظم تصلباً في الباطل المنافي للاهتداء، فالأنعام يمكن سوقها إلى ما تنتفع به من المراعي ونحوها، وتنقاد إلى أربابها، ولكن هؤلاء لا يمكن سوقهم إلى مصلحتهم كما هي الأنعام، وبالتالي ﴿هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فقد بالغ بهم أمر الضلال إلى أن أصبحوا عن الحق أعظم بعداً وانحرافاً، لبغضهم وكرههم للحق الذي تجافوا عنه بأسماعهم وعقولهم، فلا يسمعون بأسماعهم له، ولا يعقلون بعقولهم ما فيه من الحجج، وبالتالي فإنهم لا يتفكرون ويتدبرون.

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ
قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ
نُشُورٗا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾
لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ
فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ
ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾ ﴾

بعد أن أوضح وبين سبحانه وتعالى بطلان شرك وكفر الكافرين، وإثبات صدق رسوله صلى الله عليه وسلم، وإثبات أن القرآن العظيم من عنده عَزَّ وجل، ينتقل السياق الكريم إلى بيان مظاهر وحدانيته وألوهيته وربوبيته عَزَّ وجل، والتي أظهرها جَلَّ شأنه في مخلوقاته وفي تدبيره لها، وفي كمال قدرته وبديع تصريفه لها سبحانه وتعالى، فإن مَن تأملها أيقن أنه عَزَّ وجل هو الواحد الأحد، وربُّ كل شيء ومالكه، سبحانه وتعالى.

فقال عَزَّ وجل ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ﴾ ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك إلى كيفية امتداد الظل من بعد ظلمة الليل، أي: من بعد طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. ولو أراد لثبته دون حركة ولا تغيير، وجعل الشمس هي الْمُظْهِرَةُ والمؤثرة على انقباضه وانبساطه، وتدرجه في ذهابه. بما يتحقق به العلم أن الله تعالى هو مدبر الكون على أحسن تدبير.

وقد بدأ البيان بسؤال استفهام وتقرير، يشتد به الانتباه ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ وكذلك رفع مقام السؤال بتوجيهه إلى لنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ أيها النبي. فيخاطب عباده في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، رفعة لمقامه عليه الصلاة والسلام، بأنه هو الْمُخَاطَب الذي يُخاطبكم بما أنزله عليه ربكم من الوحي. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ يا محمد[١] قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وتوجيه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقتضي أن الكلام متصل بنظيره[٢]

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٦٠/١٧)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٨٠/٨)

ألم تشاهد أيها النبي ببصرك وبصيرتك التي يتحقق بها العلم بأن الله تعالى هو مدبر الكون على أحسن تدبير، وكذلك هو سؤال استفهامي تقريري، يقرر به قوة تدبيره سبحانه وتعالى ودقته ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ ألم تر كمال قدرة ربك في كيفية مد الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، قال ابن عباس رضي الله عنه: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. وبمثله قال سعيد بن جبير، وعكرمة وغيرهم[١] أي: مدة ما بين صلاة الصبح إلى طلوع الشمس، وهو قول لابن عباس رضي الله عنهما[٢] وفي تسميته ظلاً باعتبار أنه انفصل عن ظلمة الليل، فهو زمن الظل الممدود الذي لا شمس معه. فزود سبحانه وتعالى عباده بما يحتاجون إليه من نعمة الظل. ليكون آية من آيات قدرته عَزَّ في علاه. فيلفت انتباه العباد إليه، إذ أن اعتيادهم عليه جعلهم لا يلتفتون لآياته الدالة على عظمة الخالق في تدبيره. وسماه سبحانه وتعالى ﴿ٱلظِّلَّ﴾ ليتبين الفارق بينه وبين ما سبقه من ظلمة الليل، وما بعده من النهار. فهو مختلف بين ذلك الوقتين. فسبحان الله العظيم.

ثم يلفت تبارك وتعالى الانتباه والتأمل إلى حركة هذا الظل وعدم سكونه ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾ فلو أراد الله تبارك وتعالى أن يجعله دائماً لا يزول لفعل ذلك. ولكنه عَزَّ وجل لم يجعله ساكناً، بل جعل هذا الظل يتقلص شيئاً فشيئاً، فكلما ارتفعت الشمس نقصت كثافته، حتى إذا طلعت وارتفعت الشمس تلاشى، وانتهى. فإن حكمة الله تعالى المتجلية في مشيئته لم يجعله ربنا عَزَّ وجل ساكناً بل جعله متدرجاً في التحول، والاضمحلال. مما يدل على عظمة تدبيره في ملاءمة ذلك التدرج لحاجة الإنسان، ولم يجعل النهار يخرج فجأة، بل بتدرج عجيب عظيم. وفي هذا بيان لمظهر من مظاهر قدرته عَزَّ وجل، الدالة على أنه الواحد الأحد، الذي لا شريك له.

ثم يبين عَزَّ وجل حالة وأثر الشمس على هذا الظل ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ أي: جعلنا الشمس دالة عليه، إذ لو لم تكن هناك شمس لَمَا عُرِف الظل، ولولا النور لما عُرِفت الظلمة، فالأشياء تُعرف بأضدادها. فغياب الشمس ومجيئها، وبتأثيرها على الظل وجوداً وزوالاً دلالة وآية على كمال ودقة قدرة الله تعالى. مما يفيد أهمية التفكر في أجزاء وأحوال الكون، وفي حالاته، وتدرج أوقاته، وما يتبع ذلك من التغيير في أحوال الليل والنهار، وأثر الشمس، وأثر القمر، وتدرجهما في الطلوع والغياب، وأثرهما وفوائدهما، وغير ذلك من أحوال الكون العظيم، الدالة على عظمة الله تعالى؛ الخالق المدبر لما خلق عَزَّ وجل. فمن شأن هذه الآيات

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٣٢/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٦٠/١٧)

أن تلفت انتباه الإنسان، وتهديه إلى خالقه وخالقها، ومدبرها ومدبرهم، وواهبها لعباده كرماً وجوداً وآية عظيمة، فالواجب أن يهتدي بها الإنسان إلى الإيمان بأن الله تعالى هو خالق كل شيء، ورب كل شيء ومالكه، وأنه يجب عليه ألا يُعبَد غيره جَلَّ جلاله، وأن يُوَحَّد ربه عَزَّ وجل ويُفرَد بالعبادة والإخلاص وفق ما شرع على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر تبارك وتعالى بكيفية زوال الظل، بأنه يزول بطريقة غاية في الدقة التي يذهل لها المخلوق لو تفرس فيها بعقله وبصره، فقال تعالى ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ ثم محونا وأزلنا هذا الظل بقدرتنا وحكمتنا بطريقة يسيرة في تدرجها، وذلك بمخلوق آخر، وهي الشمس، التي تأتي إليه بطريقة متدرجة. ومن عظمة دقة البيان أن جعل ونسب القبض إليه جَلَّ في علاه ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا ﴾ لإفادة أن مرجع قبض الظل إليه عَزَّ وجل من خلال تسخيره للشمس. وأكد سبحانه وتعالى طريقة القبض بكلمتين ﴿ قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ فكلمة ﴿ قَبْضًا ﴾ تأكيد لفعل القبض الذي هو ﴿ قَبَضْنَٰهُ ﴾ بما يفيد تأكيد فعل القبض أنه إلى الله تعالى، وذلك بتسخير الشمس وتدبيرها عليه. وأفادت كلمة ﴿ يَسِيرًا ﴾ السهولة واليسر بالتدرج، كما تشمل دلالتها: بأن قبض الظل كان يسيراً على الله تعالى، لا مشقة فيه. وكل شيء هو على الله تعالى يسير. وفي هذا استدعاء من الله تعالى إلى عباده أن يتأملوا حركة الكون التي منها الظل، فإن دلائلها تُثبت أن الله تعالى له ملك السماوات والأرض، وأنه مدبر هذا الكون تدبيراً بديعاً، يدل على عظمة وبديع ما صنع عَزَّ وجل، مع كمال القدرة، مما يدل على أنه هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وفق ما شرع على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم ينتقل السياق في تدرج منتظم إلى بيان قدرة الله تعالى في حدوث الليل والنهار، وعلاقته براحة الإنسان، وانتظام حياته ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ وهو لا غيره سبحانه وتعالى الذي جعل لكم أيها الناس الليل ساتراً بظلامه؛ كاللباس لكم ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ فشبه الليل بأقرب ما يكون من حياة الإنسان في استخدامه، وهو اللباس. وأن من مزيد فضله وتدبيره لكم أن جعل لكم النوم وسيلة لانقطاع البدن عن الحركة ﴿ وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ والسبات هو القطع، إذ ينقطع النائم عند نومه عما اعتاد عليه من الحركة في يقظته. وهذا من لطفه ورحمته بعباده.

بينما جعل النهار وسيلة ووقتاً وزمناً للانتشار والحركة ﴿ وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ فجعل النهار لأجل انتشاركم وحركتكم. لتبتغوا مرادكم ومطالبكم من المعاش والأرزاق، وغيرها من حاجاتكم المتنوعة والمختلفة.

بما يفيد: من هو الذي دبر هذا؟ بهذه الحكمة والغاية، أليس هو ربكم وخالقكم؟ وأن الذي يحيكم بعد موتتكم الصغرى التي هي النوم، هو ربكم الذي يحيكم بعد موتتكم الكبرى. فكيف لا تؤمنون بالبعث بعد موتتكم الكبرى، بينما تؤمنون بالحياة بعد موتتكم الصغرى؟ فالذي يحيكم بعد منامكم هو الذي يحيكم بعد موتكم. وبالتالي كيف لا تؤمنون بالبعث والنشور، وكيف تعبدون غيره، ولا توحدونه بالعبادة، فَتُطِيعُون ما جاءكم به رسوله صلى الله عليه وسلم من الحق. فهو تقرير يفيد التنبيه من الله تعالى، ليستثير به الفكر نحو الآيات والحجج والبراهين التي يعيشها الإنسان، دون أن يكترث وينتبه لها. مما يدعو إلى أهمية التأمل والتفكر في ملكوت السماوات والأرض، فإنها تؤكد وحدانية الخالق، وما يجب على المخلوق تجاه خالقه.

وقد بدأت الآية الكريمة بحصر الجعل ﴿جَعَلَ﴾ بأنه لله عَزَّ وجل ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ﴾ أي: أن ما جعله الله تعالى لكم من الليل والنهار، فإنه حاصل بتدبيره وتسخيره عَزَّ في علاه، فأوجد لكم بالليل النوم والراحة، وبالنهار الحركة والنشور، فإن ذلك له وحده لا شريك له ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ﴾ فهو الذي جعل لكم ما أخبركم به، وليس غيره. ثم عَيَّن من قصدهم بهذا التدبير وهذا الانتفاع ﴿لَكُمُ ﴾ أنتم أيها الناس، وغيركم يصبح تبعاً لكم في استفادتهم من الليل والنهار، كالحيوان والدواب والحشرات، والنبات، فأنتم أيها الْمُخَاطَبُون المخصوصون بهذه النعمة، والرحمة العظيمة، وأن غيركم تابع لما أنعم به عليكم، فدخلوا معكم فيما أنعم به عليكم.

وبدأ بيان الآية الكريمة بالليل ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ وشبهه بأقرب ما يكون من حياة الإنسان في استخدامه، وهو اللباس ﴿ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ واللباس هو ما يلبسه الإنسان من أجل التستر به عن الغير، وكذلك الليل بظلامه ستر عن الغير. وقد وردت كلمة ﴿لِبَاسًا ﴾ لتشمل التغطية والستر لحال الإنسان ولغيره من الكون الذي يغشاه الليل. ثم عطف النوم على الليل ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ لوجود العلاقة الترابطية بين الليل والنوم، فهو الوقت الرئيس للنوم، وإن جاز وأمكن النوم في غيره. والسبات هو القطع، والنائم ينقطع عند نومه عما اعتاد عليه من الحركة في يقظته. وبالتالي أعط السبات دلالة الراحة للبدن والفكر، فيستيقظ النائم وهو في أحسن وأقوى نشاطاً مما كان عليه قبل نومه.

كما وردت كلمة ﴿ سُبَاتًا ﴾ عامة لتستوعب المخلوقات جميعاً، ومنها الحيوان، والحشرات، والدواب، وغيرها. ثم من دقائق البيان أن عطف السياق جملة ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ على جملة ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ ولم يعطفه على ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ وذلك لانفصال الليل عن النهار، وانفصال ما يكون في النهار عن الليل. بينما عطف النوم على الليل لوجود الترابط بينهما، فالليل هو محطة السكون والنوم.

فورد العطف بينهما. بل كرر الجعل مرتين: الأولى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ والثانية: ﴿ وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾: فانفرد الليل بجملة، وانفرد النهار بجملة. وهذا من الإعجاز في السياق، وترابط الكلام الذي لا ينتبه لها الإنسان في تعبيره وكلامه الشخصي مع غيره. فسبحان من أعجز ببيانه عباده. ليدل على أن هذا القرآن هو كلام الله تعالى المعجز من كل وجه.

وبعد أن ذكر جَلَّ جلاله شأن الظل وانحساره، ولوشاء لجعله ساكناً، وما ذكره عن الليل وستره، والنوم وراحته للإنسان، وما ذكره كذلك من جعل النهار وقتاً للانتشار وابتغاء فضله عَزَّ وجل، ينتقل ويستأنف البيان إلى المزيد عن أمر دلائل قدرته وحكمته وحكمه وسلطانه وتدبيره جَلَّ جلاله، فينتقل إلى شأن نعمة الماء، الأمر الذي يؤكد ربوبيته وألوهيته، فإنه عَزَّ وجل هو الذي يتحكم بالرياح وسيرها، لتنتقل بالسحاب الْمُحَمَّل بالماء من مكان إلى آخر. وقد جاء انتقال البيان الكريم في تدرج منتظم إلى نزول المطر، وعلاقته بالرياح، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ فهو الذي أرسل رياح الهبوب؛ المحملة بالسحاب الذي يستبشر بها العباد بنزول الغيث. فأخبر تبارك وتعالى عن تدبيره لملكوته سبحانه وتعالى، فإنه عَزَّ وجل هو الذي يتحكم بالرياح ومسيرها ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ فهو الذي أرسل رياح الهبوب؛ طيبة النسيم، التي ينشأ بحركتها اجتماع السحاب وانتقاله ﴿ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ فهي منتشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، فتبشر بالغيث، الذي يستبشر به العباد وبنسيمه الطيب، وقد سمى الله تعالى المطر بالرحمة ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ قال ابن جرير رحمه الله تعالى: والرحمة التي ذكرها جَلَّ ثناؤه في هذا الموضع: المطر[١] فأراد سبحانه وتعالى بالرحمة هنا المطر، أي: يرسل الرياح ناشرات بين يدي المطر. فإن هذا التدبير أدعى لشكره وتوحيده وعبادته جَلَّ جلاله، فليس هناك قادر غيره على تدبير هذا الأمر بهذه الكيفية. فالسحاب رحمة من رحمة الله تعالى.

فبعد أن ذكر سبحانه وتعالى الأسباب التي تحدث بها البشارة بالغيث، ونزول الماء، يذكر عَزَّ وجل النتيجة، ونوع النتيجة، أو صفة النتيجة ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ أي: وأنزلنا بحركة الرياح للسحاب المرتفع في السماء ﴿ مَآءً طَهُورًا ﴾ ماءً متصفاً بالطهارة والنظافة، بل إنه طاهر في نفسه، ومُطهر لغيره. قال الشوكاني رحمه الله تعالى وغيره: ذهب الجمهور إلى أن الطهور هو الطاهر المطهر، ويؤيد ذلك كونه

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٢٥٤)

بناء مبالغة[١] فهذه المشاهد من نزول الغيث، ومجريات نزوله، وما يكون منكم من استبشار سَوق الرياح للسحاب آية من الآيات الدالة على أن الكون كله يسير بتدبير الله عَزَّ وجل، الخالق الرازق، الذي يستوجب من جميع العباد توحيده، وإفراده بالعبادة، وفق ما نزل على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يذكر تبارك وتعالى علة وسبب إنزال الماء من السماء، بأنه رحمة منه بكم، فيسقيكم ويُسقي ما تحتاجون أن يسقيه من الأرض والأنعام وغيرها. فقال تبارك وتعالى ﴿ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ فالغاية من إنزال الماء من السماء لتحيا به الأرض الميتة الجدباء، التي لا زرع فيها، وذلك بالإنبات الذي يكون بسبب نزول المطر. وقد نسب الإحياء له جَلَّ في علاه ﴿ لِّنُحْـِۧيَ ﴾ كما أفادت الباء السببية، والضمير الملتصق بها ﴿ بِهِۦ ﴾ إفادت: أن جعلنا حياة المذكورين مرتبطة بهذا الماء. كما أن من دقائق البيان أن أفرد سبحانه وتعالى البلدة، وجعلها أيضاً نكرة ﴿ بَلْدَةً ﴾ ليفيد الأرض الْمُعَيَّنَة والمقصودة التي يريد الله تعالى أن يحيها من بين جنسها، فليست أرض محددة، بل كل أرض ميتة يريد الله تعالى إحياءها. وتفيد كلمة ﴿ مَّيْتًا ﴾ أنه لا حياة فيها، فلا زرع فيها، نتيجة الجفاف. وفي هذا الإحياء بعد الممات آية من آيات الله تعالى التي تبين البعث بعد الموت، فالذي يحي الأرض بعد موتها، كذلك يحي الإنسان بعد موته. ولذلك تقدم إحياء الأرض سقاية غيرها من الأنعام والناس. ومن فوائد تقديم إحياء الأرض على الأنعام والإنسان، أن مدار حياة الإنسان والأنعام مبنية على حياة الأرض. مما يدل على منهجية ترتيب الأولويات، كيف تكون. فالأول هو ما يقوم عليه غيره، ثم الذي يليه، وهكذا. كما قدم كذلك الأنعام على الإنسان، لأن طعامهم قائم عليها.

ثم ذكر تبارك وتعالى بعد إحياء الأرض الميتة بالماء، ذكر سقيا الأنعام والناس، بينما عن الأرض ذكر إحياءها بعد موتها، بينما في الأنعام والإنسان ذكر السقيا، لأن الذي ينتفع بالماء هم الأحياء، وأما من مات من الإنسان والحيوان فلا ينتفع به، وهذه من دقائق إعجاز البيان ﴿ وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ فبدأ تبارك وتعالى بالأنعام ﴿ وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا ﴾ لأن مدار معاشهم وطعامهم عليها، من ألبانها، ولحومها. ثم ذكر تبارك وتعالى الإنسان، مع وصفهم بالكثرة ﴿ وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ أي: بشراً كثيرا، وكلمة ﴿ وَأَنَاسِيَّ ﴾ جمع إنسان، أو إنسي. ووصف تبارك وتعالى الناس من حيث العدد بصفة الكثرة

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٨٠/٤)

﴿ وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ ليفيد: وأناس كثيرون يشربون من ماء المطر، لأن هناك من يعتمد على الأنهار الجارية. وقد ذكر ابن عاشور رحمه الله تعالى عن دلالة ﴿ كَثِيرًا ﴾: بأن البعض يشربون من مياه الأنهار، كالنيل والفرات[1] وفي هذا إعجاز بياني لدقائق تراكيب الكلام، التي تحدد المقصد والمراد بدقة متناهية، فيعجز عنها البشر، لعمق عطائها ودقته في تحقق الوصف بأدق ما يكون.

كما أن في هذا التفضل والإنعام ما يفيد: استثارة النفوس والعقول، ولفت الانتباه إلى رحمة الله تعالى بالإنسان، وتدبير شؤونه وحياته بكريم تسخيره وعطائه، الذي يستوجب شكره وطاعته. كما يستوجب من الإنسان التأمل في عظيم تدبير الله تعالى، والذي يقوده إلى توحيده، وطاعته، والإيمان بما جاء به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. كما يفيد أن القرآن كتاب إعجاز، يدل على أنه لا يكون إلا من الله تعالى، وبالتالي يدل على صدق نبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم يؤكد تبارك وتعالى الغاية والهدف من تصريف وتوزيع الأمطار، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ فبدأ البيان الكريم بحرف التحقيق المسبوق بلام القسم ﴿ وَلَقَدْ ﴾ ليفيد تأكيد ما بعده من البيان. ثم ذكر سبحانه وتعالى تدبيره العظيم في تصريف المطر، وذلك بتوزيعه بين أقطار الأرض وسكانها من الناس والأنعام ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ ﴾ لقد وزعنا نزول الأمطار بينهم، فلم نجعله محصوراً في مكان دون آخر، بل وزعناه وفق حكمتنا وإرادتنا، بتحويل أحواله وأوقاته، ومقداره. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: أمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسقنا السحاب يمر على الأرض ويتعداها ويتجاوزها إلى الأرض الأخرى، فيمطرها ويكفيها، ويجعلها غدقاً[2] وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما عامٌ بأكثرَ مطراً من عامٍ، ولكن اللهَ يُصَرِّفُه بين خلقه[3] بما يفيد أن كمية المطر التي تنزل من السماء واحدة، ولكن يوزعها الله تبارك وتعالى بحكمته من حيث القلة والكثرة. ولذلك تحصل قلة في مكان، ويكثر في مكان، ويتوقف عن بعض الأمكنة، وهكذا في تقلب عجيب من حيث الكثرة والقلة، وفق حكمته وتدبيره عَزَّ وجل.

ثم يخبر الله تعالى عن المقصد والهدف الذي يجب على الإنسان أن يستلهمه من ذلك، وهو عظيم وكمال قدرة الله تعالى، ووحدانية ربكم عَزَّ وجل، وأنه لا معبود بحق إلا هو جَلَّ في علاه ﴿ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٨/٢٩٥)

(2) ابن كثير. تفسير القرآن العظيم (٣/٣٣٣)

(3) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/٤٦٨)

ليتذكروا ويتعظوا بإحياء الأرض بعد موتها أن البعث أمر حاصل كما أحيا الله تعالى الأرض بعد موتها، وأنه هو الذي أمات الأرض بمنع القطر عنها، ويحيها بإنزال الماء من السماء عليها. وليتذكروا قدرة الله تعالى وحكمته في توزيع الأرزاق، وأنه هو الرزاق، وهو الرحمن الرحيم.

﴿ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴾ فامتنع أكثر الناس إلا أن يكفروا بهذا التصريف. قال عكرمة رحمه الله تعالى: يعني الذين يقولون مُطرنا بنوء كذا وكذا[١] فلم ينسبوه إلى الله تبارك وتعالى. وقد ورد وصف تصرفهم بالإباء ﴿ فَأَبَىٰٓ ﴾ هو الامتناع مع معرفة الحق والصواب في الذي امتنعوا عنه، فهو امتناع عن معرفة للحق، وبالتالي هو امتناع جحود. ومن دقائق السياق بيان كثرة الكافرين ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴾ والمتأمل يجد أن حقيقة واقع الناس هي كثرة الكفر، وقلة المؤمنين بالنسبة لعدد الكافرين، وهذه آية من آيات الله تعالى، لِمَن تأملها. ومعنى الكفر: الإنكار، وهو حجب الحق ومنعه، وتغطيته وستره، فيحجب الكافر الحق الذي رآه، ويمنع نفسه من الحق الواضح، ويستر الحق بالافتراء والكذب. فدلالتها تستوعب الحقائق المتعلقة بها. فسبحان الله العظيم.

ومن بديع البيان وقوته أن هذه الآية الكريمة متعلقة بما سبقها من تصريف الله تعالى للأمطار، وفي نفس الوقت يمتد بيانها ويستوعب الآيات التي قبل ذلك، من مد الظل، وقبضه، وجعل الليل لباساً وسترا، وجعل النوم سباتا وراحة، وجعل النهار نشوراً وحركة، وإنزال المطر الذي يحي به الله تعالى بلدة ميتة، ويسقي به أنعاماً وأناسي كثيرا. قال الشوكاني رحمه الله تعالى عن ضمير صرفناه: ذهب الجمهور إلى أنه راجع إلى ما ذكر من الدلائل: أي كررنا أحوال الإضلال، وذكر انشاء السحاب، وإنزال المطر في القرآن، وفي سائر الكتب السماوية، ليتفكروا ويعتبروا. وقال آخرون أنه يرجع إلى أقرب المذكورات وهو المطر[٢] وهذا من غزارة البيان في استيعابه لما تتحقق به المقاصد من التأمل والتفكر. وجميعها صحيحة، إذ يستوعبها السياق في تآلف لا تعارض فيه. وهو من إعجاز البيان. فسبحان من أظهر أعجازه في نسق كلامه تبارك وتعالى.

ثم يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم حكمته في بعث النبي صلى الله عليه وسلم رسولاً لجميع الناس، في جميع أصقاع الأرض، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴾ لو اقتضت مشيئتنا وحكمتنا أن نبعث في كل قرية رسولاً ينذرهم من الكفر لفعلنا ذلك. ليفيد أن حكمته عَزَّ وجل

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٣٣/٣)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٨١/٤)

اقتضت أن يكون محمداً رسول الله تعالى للناس أجمعين، وفي كل أصقاع الأرض. مما يبين منزلة نبينا محمد عليه الصلاة ومكانته، وأن دعوته ستصل لجميع الناس.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى فيما يجب اتخاذه مع الكافرين، فيقول عزَّ وجل ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ فلا توافقهم على ما يريدونه منك، وجاهدهم بتبليغهم هذا القرآن. فقد اشتمل التوجيه على قاعدتين عظيمتين: الأولى ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ فلا توافقهم على ما يريدونه منك، ويدعونك إليه من فساد مرادهم ونياتهم. وهو نهي عام عن كل مطلب فاسد منهم. والقاعدة الثانية ﴿ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ وبهذا القرآن جاهدهم بتلاوته عليهم، ودعوتهم إليه، وبيان براهينه ودلائله، والعمل بما فيه، وبيان ما هو مطلوب منهم، وما يجب عليهم، وحَذّرهم من كفرهم. وقد وصف سبحانه وتعالى مجاهدة نبيه التي يجب أن تكون مع الكفار بأنها الجهاد الكبير ﴿ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ وورد الوصف بتكرار فعل الجهاد، وقد أفاد تكراره تحصيل المبالغة، باعتبار أنه مفعول مطلق. فبالغ أيها النبي في جهادك لهم مبالغة كبيرة، بحيث تبذل منتهى وسعك معهم، بما يقمع ويدحر الباطل، وينصر الحق الذي معك، وهو الذي أُرْسِلت به من ربك تبارك وتعالى. بما يعني: المثابرة، وعدم اليأس. وعدم الالتفات لما يقترحونه، ويدعونك للتفاوض معهم فيه. مما يفيد أهمية الصبر في الدعوة، وأهمية الصبر حين إرادة الإنجاز، وألا يتهاون الداعية ويتكاسل حين يجد الصعوبات، بل يستمر في بسالة وشجاعة حكيمة. مما يبين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يواجه في دعوته المصاعب التي منها: دعوتهم له بما يقترحون ويطلبون، وبما يكون منهم من العناد، والأذى الحسي والمعنوي. فتكبد عليه الصلاة والسلام في سبيل الدعوة إلى الله تعالى الكثير والكثير من المشاق. فصلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً، وجزاه ربنا خير الجزاء وأعظمه.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا
لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا
يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ

ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

ويعود البيان الكريم إلى الإخبار والإعلام المفصل لآيات الله تعالى الكونية التي يعايشها الإنسان، والدالة على عظيم خلقه وتدبيره لما خلق عَزَّ وجل. فيقول تبارك وتعالى ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا** ﴾ فإنه سبحانه وتعالى هو لا غيره الذي أرسل وأمرج أحد البحرين على الآخر، فأرسل البحر العذب على البحر المالح، فأفاض الماء العذب على المالح، فاختلط بعضها ببعض. ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ** ﴾ فهو وحده الذي أجراهما، بفعل وأسلوب المرج ﴿ **مَرَجَ** ﴾ وهو الخلط والإرسال. ﴿ **مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ** ﴾ قال مجاهد رحمه الله تعالى: أفاض أحدهما على الآخر[١] فخلط أحدهما بالآخر.

ثم أوضح تبارك وتعالى الفارق العظيم بينهما ﴿ **هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ** ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يعني بالعذب الفرات مياه الأنهار والأمطار، وبالملح الأجاج مياه البحار[٢] ﴿ **هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ** ﴾ هذا البحر الذي اتصف ماؤه بالحلاوة ﴿ **فُرَاتٌ** ﴾ والفرات أعذب الماء، لشدة حلاوته ﴿ **وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ** ﴾ بينما هذا البحر قد اتصف ماؤه بالملوحة المختلطة بالمرارة ﴿ **أُجَاجٌ** ﴾ والأجاج: المالح، المختلط بشيء من المرارة، لشدة ملوحته. ومع هذا الاختلاط بين ماء النهر الحلو وماء البحر المالح فإنه يمنع عَزَّ وجل اختلاط التأثير، فبقدرته سبحانه وتعالى يمنع تأثرهما ببعض، بعملية الحجز العجيبة والدقيقة. فحجز ماء كل واحد منهما عن الآخر، فلا البحر بقوته وقوة أمواجه وكثرته يؤثر في مياه الأنهار، ولا الأنهار بكثرتها وتتابع تدفقها في البحار تؤثر فيها ﴿ **وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا** ﴾ فجعل بين هذا الماء العذب وهذا الماء المالح حاجزاً فلا يختلطان، بما يجعل كل واحد منهما يلزم صفته التي خُلِق عليها.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٧٢/١٧)

(٢) الطبري، المرجع السابق (٤٧٣/١٧)

بل وأضاف سبحانه وتعالى من الموانع ﴿ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أي: ستراً مانعاً من أن يصل أحدهما للآخر. بل أكد سبحانه وتعالى هذا الحاجز بأسلوب المبالغة في المنع ﴿ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ فأعاد فعل الحجر مرة أخرى بأسلوب المفعول المطلق الذي يدل على المبالغة في الحجز. ليدل على قوة وكمال قدرته عَزَّ وجل، وعجائب صنعه الدال على أنه رب كل شيء ومالكه. وأنه إذ أراد شيئاً قدَّره بما يشاء من القدرة والمشيئة سبحانه وتعالى. كما أن في هذا امتنان على العباد بهذه النعمة العظيمة، فلا يطغى ماء البحر بكثرته وقوة أمواجه على مياه الأنهار، بل إنها هي التي تصب فيه ماءها العذب الذي لا يؤثر في ملوحة البحر على كثرة تدفقه، فمهما صبت الأنهار وتواصلت في إرسال مائها إلى البحار فإن مياه البحار لا تتأثر، فتبقى على ملوحتها كما هي. فمن منع هذا التأثير غير الله تعالى. مما يبين قوة تدبير الله عَزَّ وجل، وغزارة آيات الله تعالى وكثرتها، والتي تُوجب على العباد الاعتبار والانكسار لخالقهم بطاعته وتوحيده، وطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

وبعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى عدداً من مظاهر قدرته في مد الظل، وفي سَوق الرياح، وتوزيع وتقدير المطر بين العباد، ومنع تأثر البحرين المختلفين في طعم مائهما ينتقل البيان الكريم في تدرج مثير إلى خلق الإنسان، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ فربكم لا غيره هو الذي خلق من ماء النطفة إنساناً ﴿ بَشَرًا ﴾ وسَمَّى الذي خُلق منه الإنسان ماء ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا ﴾ فسماه عَزَّ وجل ماء مطلقاً، ليدل على أن النطفة هي نوع من الماء، وليزداد به لفت انتباه الإنسان إلى أصل خلقته وتكوينه، ليعتبر ويتفكر، من أنها نقطة ماء، صغيرة في حجمها، ضعيفة في تكوينها وصورتها. ومن هذا الضعف وصغر الحجم يتكون هذا الإنسان. فيصبح له جسم وعقل وروح، وإرادة، ويتكلم ويمشي، ويأخذ، ويعطي، ويمنع، ويقبل ويرفض، ومنهم الذكر، ومنهم الأنثى. ثم يبدأ أكثر هؤلاء المخلوقين بتقديم إرادتهم وأهوائهم على مراد ربهم الذي أنشأهم وخلقهم من هذه النطفة في أحسن تقويم.

ثم يلفت انتباه هذا الإنسان إلى ذاته من حيث ما يتعلق بالقرابة والأنساب مع غيره من البشر ﴿ فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهراً، ويصير له أصهار، وقرابات، وكل ذلك من ماء مهين[1] وقد أفرد الله تعالى النسب، وعطف عليه الصهر ﴿ فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ قال علي رضي الله عنه: النَّسب: ما لا يحل نكاحه. والصهر: ما يحل نكاحه[2] فجعل جنس هذا الإنسان عن طريق النسل أنساباً، وهو ما ينتسب إليه الإنسان من الأبوين، وما

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٣٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/١٩)

يتبع ذلك من التدرج في الأحفاد، والأقارب. وكذلك جعل لهم أصهاراً ﴿ وَصِهۡرٗا ﴾ وهو ما يكون بينهم بالزواج، ولذلك يقال فلان صهر فلان، أو فلاناً صاهر فلاناً، أي تزوج منهم. قال الفراء والزجاج رحمهم الله تعالى: واشتقاق الصهر من صهرت الشيء، إذا خلطته، وسُمّيت المناكح صهراً لاختلاط الناس بها، وقيل الصهر: قرابة النكاح[1] والأصهار تعم قرابة الزوج والزوجة، لأن قرابة الزوج هم الأحماء، وقرابة الزوجة هم الأختان. وهذه العلاقات من آيات الله تعالى الباهرات، الدالة على أن الله تعالى هو المتحكم في خلقه بتدبيره. فجعل الناس يتزاوجون، فيتصاهرون، وتحصل الأنساب التي بها يتعارفون، ويتواصلون، وتستوجب بها الحقوق في العلاقات. مما يستوجب عبادته وحده لا شريك له، والاعتقاد الجازم بأنه خالق كل شيء والمتصرف فيه، وأن ذلك يستوجب توحيده، وطاعته بما شرع على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يختم الله تعالى الآية الكريمة بما يؤكد ويبين الهدف من هذا البيان العظيم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴾ أي: عظيم القدرة، بأن خلق هذا الإنسان العجيب من ماء، وجعل التناسل، والأنساب، والتصاهر آية عظيمة من آياته التي توجب عليهم عبادته وتوحيده، وطاعة رسوله باتباعه صلى الله عليه وسلم. وورد البيان عن قدرته سبحانه وتعالى مسبوقاً بكان ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴾ ليفيد تقرير أصل القدرة وكمالها له، كما ورد بيان القدرة على وجه العموم ﴿ قَدِيرٗا ﴾ ليفيد كمال القدرة وشمولها لكل شيء، فليست قاصرة على خلق الإنسان، بل مستوفية للكمال والشمول، وعدم الحصر والقصر لها. وورد الخطاب موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم، شاملاً لكل مؤمن، ومتعدياً لكل إنسان ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴾ وكان ربك أيها النبي متصف بكمال القدرة وشمولها، ويستوعب تركيب سياقها أنها خطاب لكل مؤمن بأن ربك أيها المؤمن قدير. وأيضاً لفت الانتباه لكل إنسان أن الله عَزَّ وجل على كل شيء قدير، بما بينه في كتابه القرآن الكريم.

ثم وردت الآية التي بعدها كاشفة ومؤكدة لانحراف هذا الإنسان؛ بالرغم من جميع تلك الآيات العظيمة، والحجج والبراهين الساطعة الدالة على ربوبيته وألوهيته ووحدانيته عَزَّ وجل ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ﴾ فيعبدون من دون الله تعالى غيره من الحجر والأصنام والملائكة، والجن والإنس، وهم العاجزون عن مد النفع لهم، أو بحبس الخير عنهم، أو معاقبتهم إن لم يعبدوها. فينكر الله تعالى على من عبد أصناماً ومعبودات من دونه عَزَّ وجل، فإنها لا تضرهم إن تركوا عبادتها، ولا تنفعهم إن عبدوها ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡ ﴾ وفي هذا بيان لواقعها الذي

(١) الشوكاني، فتح القدير (٨٢/٤)

يستلزم منهم أن لا ينصرفوا في عبادتهم إليها وهذا حالها من العجز، بل يجب أن يصرفوا عبادتهم للذي بيده ملكوت كل شيء سبحانه وتعالى، وفي هذا التوجيه والبيان الكريم ما يعيد العابدين إلى حقيقتهم وحقيقة معبوداتهم من دونه تبارك وتعالى، وبالتالي كيف تعبدون أصناماً مسلوبة النفع والضر. ومن دقائق البيان أن ورد النفع والضر مطلقاً، ليشمل جميع أنواعه. بما يدل على أن معبوداتهم من دونه عَزَّ وجل مسلوبة الإرادة عن تقديم نفع أو ضر لغيرها.

ثم يصف عَزَّ وجل تمادي هؤلاء بأشنع وصف ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ فقد كان الكافر بالله تعالى بشركه الذي هو فيه ﴿ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ معاوناً ومسانداً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك وعموم المعاصي، فأصبح معانداً ومبارزاً لربه بالمعاصي والعناد. وذكر ابن عاشور رحمه الله تعالى: أن الله تعالى جعل الخبر عن الكافر للفعل ﴿ وَكَانَ ﴾ للدلالة على أن اتصافه بالخبر أمر متقرر، ومعتاد من كل كافر. واللام في تعريف الكافر ﴿ ٱلْكَافِرُ ﴾ للاستغراق، أي كل كافر على ربه ظهير[١] وهذا من دقائق السياق الذي يبين دقة الوصف الذي يستوفي الحقيقة المراد بيانها بكل دقة. وأفادت دلالة ﴿ ظَهِيرًا ﴾ المعاونة والمساندة للشيطان ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ فمعاند ومساند للشيطان ولغيره من الكفرة.

ثم يتوجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بما يرفع الحرج عنه في شأن من تمسك بكفره بعد دعوته، وبذل الجهد معه، فقال تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ فما كلفناك أيها النبي فيما بعثناك به من الرسالة إلا لتبشر بثواب الله تعالى لمن آمن وأطاع. وتنذر بعذاب الله لمن كفر. فرسالتك أيها النبي مقصورة ومحصورة في إبلاغ العباد ﴿ مُبَشِّرًا ﴾ أي: مخبراً بأسلوب البشارة لمن أطاع بأن له الجنة ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ وتنذر بعذاب الله تعالى لمن كفر، وهي النار وبئس المصير. فتنذرهم بغضب الله تعالى عليهم وعقابه الشديد الأليم. فعليك إبلاغ رسالتنا للعباد. بما يفيد أن هدايتهم ليست بيدك، ولا بيد غيرك، بل كل إنسان على نفسه بصير، وعليه أن يتحمل مسؤولية ما أخذ به.

ثم يخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما يقوله لمن يدعوهم، على سبيل الإرشاد والتوضيح، بأن الهدف ليس هو لجمع المال منكم ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ قل يا أيها الرسول لمن تدعوهم ﴿ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ فلا أسألكم على هذه البشارة،

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٠٢/٨)

وعلى هذا الإنذار، وما يتبع ذلك من الإرشاد والتعليم أجراً وثمناً تدفعونه لذلك، فلا اسأل وأطلب على تبليغ رسالة ربي أجراً تدفعونه ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ إلا من أراد أن يتقرب إلى الله تعالى بالصدقة في سبيله عَزَّ وجل، والإحسان إلى الغير. بما يفيد: أن لكل واحد ما يريد ويبتغي من الخير عند ربه. فلا أسألكم لنفسي أجراً، ولكن لكل من أراد أن ينفق في سبيل مرضاة الله تعالى، وابتغاء جنته وثوابه فله مراده. وفي هذا كشف الإخلاص لهم في الدعوة، ونفي ما قد يظنونه من الوهم. مما يفيد أهمية دفع ما يمكن أن يكون من الظنون والشُّبَه من الغير عند سلوك مسلك الخير، حتى يدفع بها ظنون السوء، والتأويل الخاطئ، والنظرة القاصرة الخاطئة.

ويستمر توجيه الله تعالى إلى رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يستمر في دعوته، متسلحاً بالتوكل على ربه تبارك وتعالى، الحي الذي لا يموت، فإنه سبحانه وتعالى هو الخبير بعباده ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ توكل على ربك أيها الرسول في مسيرة حياتك ودعوتك بما كُلِّفت وأُرسلَت به من ربك عَزَّ وجل. والتوكل هو الاعتماد على الله تعالى في تحقيق المطلوب، ودفع المكروه، مع الأخذ بالأسباب. فاجعل ربك ملجأك وذخرك ومفزعك، فإنه الكافي والناصر، الذي إذا أراد شيئاً تحقق وفق ما يريده. وهذا التوجيه يفيد كل مؤمن بأن يتوكل على ربه في مسيرة حياته، ومعتمداً عليه سبحانه وتعالى، وآخذاً بالأسباب، ومدركاً بأن الأسباب تقوى وتضعف بما يريد ويشاء سبحانه وتعالى.

ثم وصف عَزَّ وجل ذاته بحقيقتها العظيمة، بالديمومة التي لا تنقطع، قائلاً جَلَّ جلاله ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ اعتمد على المتصف بالحياة التي لا تنقطع ولا تزول عنه، فأثبت عَزَّ وجل كمال الحياة بصفة ﴿ ٱلْحَىِّ ﴾ ثم أكد عدم انقطاع الحياة له جَلَّ جلاله بنفي الموت ﴿ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ فربنا تبارك وتعالى هو الباقي، وكل شيء يفنى ويزول بأمره وحكمته. بما يفيد عدم قياس حياة الله تعالى على المخلوقين، فإنه ليس كمثله شيء، كما قال تعالى في سورة الشورى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ ومن جميل البيان ودقائقه أن ذكر عَزَّ وجل اسمه ﴿ ٱلْحَىِّ ﴾ ثم ذكر خصوصية ديمومة الحياة، بنفي الموت عنه ﴿ ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ لإفادة انحصار دوام الحياة عليه جَلَّ في علاه، فقد قصر وحصر الحياة التي لا تنقطع عليه عَزَّ وجل، فإذا ذكر ﴿ ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ فلا يعني ذلك إلا هو العزيز الحكيم، لانحصارها واقتصارها على ربنا تبارك وتعالى. فليس هناك من الخلق إلا منتهي بالموت، أو منتهي بزواله.

ثم يأمر نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يَضُمَّ إلى التوكل التسبيح والحمد ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أي: قل: سبحان الله، وقل: الحمد لله، فاقرن بين التسبيح وبين حمد الله تعالى وشكره. فسبحه تسبيحاً مصاحباً ومشاركاً للحمد الذي هو الثناء عليه عَزَّ وجل بما أنعم. فالتسبيح يفيد الإجلال والتعظيم، والتنزيه، والحمد يفيد الاعتراف بالنعمة وبالله تعالى الذي أنعم بها: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. مما يفيد الإخلاص لله تعالى في توحيده، وإفراده بالعبادة، مع التوكل عليه. فإنها القوة والوسيلة التي يفوز وينجح بها المؤمن.

ثم يخبر الله تعالى بكمال علمه عن عباده، وما يصيبون من الذنوب ﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ فيكفيك أيها النبي، ويكفي غيرك بعلم الله تعالى الشامل الكامل بشأن عباده، ومنها ارتكاب الذنوب المتنوعة، والشاملة لكافة المعاصي، ومنها ظلمهم لغيرهم، ومعرفة الظالم من المظلوم، بما يفيد أن الله تعالى سيعاقب المذنب على ذنوبه، وسينتصر للمظلوم من الظالم، ويأخذ بحقه من المظلوم. وخص سبحانه وتعالى أنه خبير بذنوب عباده باعتبار معالجة الموقف الذي يخص النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه المنكرين له ولرسالته، وليكن بياناً لكل عباده المذنبين بكفرهم، وتحذيراً وتهديداً لهم. وليكن في حق المؤمنين التحذير من الذنوب.

ومن دقائق البيان أن كلمة ﴿ وَكَفَىٰ ﴾ تفيد الكفاية التامة، التي لا تحتاج بعدها لغيره عَزَّ وجل، وورد اسم العباد عاماً ﴿ عِبَادِهِۦ ﴾ ليشمل جميع العباد، من مسلم وكافر. وكذلك وردت الذنوب على وجه التعميم ﴿ بِذُنُوبِ ﴾ لتشمل كافة الذنوب، صغيرها وكبيرها، وكثيرها وقليلها، ودقيقها. كما أفادت كلمة ﴿ خَبِيرًا ﴾ دقة العلم بهم، فإنه يعلم ذنوبهم على حقيقتها، المتعمد والجاهل والناسي، فإنه سبحانه وتعالى يدرك حقيقتها من كل وجه، فيخبر العاصي بعلمه الحقيقي عن معصيته. فهو عليم بسرائر عباده، وضمائر قلوبهم، فيحفظها عليهم سبحانه وتعالى.

ثم يُلحق سبحانه وتعالى بصفة الحي الذي لا يموت، والخبير بذنوب عباده، يُلحق بها بيان عظمة خلقه. فينتقل السياق الكريم إلى بيان عظمة ما خلق جَلَّ جلاله، بما يفيد لفت انتباه العباد إلى أنه خالق كل شيء، ومالك الملك وحده لا شريك له ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ فبعد أن أثبت تبارك وتعالى لذاته دوام الحياة التي لا تنقطع وأنه خبير بذنوب عباده، أخبر كذلك بأنه الذي خلق وأبدع وأوجد السماوات والأرض، وما بينهما من المخلوقات بعد العدم، كالسحاب والنجوم والكواكب، والشمس والقمر والرياح بأنواعها، ثم يذكر تبارك مدة

الخلق ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ ذكر ابن جرير وغيره رحمهم الله تعالى: أن الأيام الست هي: يوم الأحد، والإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة [١] وفي يوم الجمعة خُلق آدم عليه السلام، ويوم السبت لم يقع فيه خلق، لأنه اليوم السابع، ومنه سُمي السبت، وهو القطع[٢] ولله تعالى الحكمة في تقدير ما يشاء من الأيام والأوقات، وهو قادر على خلق ما خلق في لحظة، ولكن ليظهر للخلق بهذا التدبير حكمته وحلمه، سبحانه وتعالى، فله الملك، وله الحكمة في عدد تلك الأيام، وفي كل أمر وشأن.

وقد جمعت جملة ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ الإيجاد والخلق والتدبير، ومنها تدبير أمر السماوات وما فوقها وما حوت، والأرض وما عليها وما حملت وما حوت، و قد جمعت كلمة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ كل ما ارتفع مما يشاهده الإنسان ومما لا يستطيع مشاهدته فغاب عنه، فمما يشاهده الإنسان الشمس والنجوم والقمر، والسحاب، وما يحسه الإنسان من الرياح والهواء، ومما لا يراه كالملائكة، وغيرها مما خلق سبحانه وتعالى من المغيبات، وهو ما غاب وخفي عن البشر، فَقَصُرت حواسهم عنه، وأما كلمة ﴿وَٱلْأَرْضَ ﴾ فشملت كل ما هو دون السماء من الأرض وما في باطنها وما يَدب عليها وما يجري فيها، فاستوعبت دلالتها الإنسان والحيوان والطير والدواب والزروع والمياه، والبحار والمحيطات، وما هو في جوفها مما يعلمه الإنسان؛ ومما لا يعلمه إلا الله تعالى. وأكدت كلمة ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ كل ما هو بين السماء والأرض من مخلوقات، مما نراه، ومما لا نراه، وما نحسه ولا نراه كالهواء.

ثم يخبر الله تعالى عن عرشه العظيم الجليل، واستعلائه على جميع خلقه تبارك وتعالى ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ والعرش أعظم المخلوقات وسقفها. فبعد خلقهن استوى على عرشه جَلَّ جلاله. استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، وهو العرش الذي يسع السماوات والأرض، وما فيها، وما بينها، استواء يليق بعظمته وجلاله وقوة سلطانه سبحانه وتعالى. قال السعدي رحمه الله تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰ ﴾ تبارك وتعالى ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ العظيم، الذي يسع السماوات والأرض، وما فيها، وما بينها، استواء يليق بجلاله وعظمته

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٢٤٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٢٩)

وسلطانه[١] والإنسان بطبعه يستوعب دلالة النص، ولكن لا يستطيع أن يدرك هيئة وصورة ما غيبه الله تعالى عنه، وهنا تأتي حقيقة الإيمان بالغيب من عير تشبيه ولا تمثيل.

ثم ختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله عَزَّ وجل ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ فيوجه تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إلى عظمة علم ربه الذي أخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ فاسأل الخبير العليم الذي أخبركم عن بعض حقائق خلقه، وعن ذاته العظيمة الكريمة، فهو الخبير بها، لا غيره. وقد أخبركم وأعلمكم بما يستوجب منكم كمال الطاعة. والخطاب وإن كان موجهاً لرسوله صلى الله عليه وسلم، فهو تعليم لعباده من خلال رسوله عليه الصلاة والسلام، وبما أثبته في كتابه القرآن العظيم. مما يستوجب عليكم أيها الناس كمال الطاعة والانقياد وفق ما شرع وبين لكم رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن عناد المشركين، وإصرارهم على الشرك ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ وإذا أُخبِرُوا، ووجّهُوا من الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يجعلوا سجودهم وخضوعهم وتوحيدهم لله تعالى. أي: خالصاً دون الآلهة والأوثان، وهو معنى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ فإن إجابتهم هي ما سجله الله تعالى عليهم، وهي ﴿ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ فأنكروا بصيغة التعجب والاستغراب اسم لرحمن. فأجابوا الرسول صلى الله عليه وسلم بالسؤال الذي يفيد أنهم يجهلون الرحمن، ولا يعرفونه. بما يدل على بهتانهم، وتماديهم في كفرهم وشركهم بالاستخفاف ولعناد.

ثم أردفوا تعجبهم وإنكارهم بتأكيد آخر ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ أنطيعك بالسجود لما أمرتنا بالسجود له. فهو سؤال استفهام، يفيد استبعاد أن تحصل منهم الطاعة، وأن يوحدوا الله تعالى ويطيعوه من غير أن يشركوا معه غيره من الأصنام والأوثان. ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ فزادهم ما أُمِرُوا به من السجود لله تعالى مبالغة في لجحود ولعناد والمعصية، فأوغلوا في التمادي والعناد عن قبول الدين والإيمان والطاعة، والهروب إلى الباطل والتوغل فيه. مما يفيد أن المكابر والحاسد يستشري في عناده للحق والصواب الواضح، بل يرده مع علمه بأنه حق. فلا يريد أن يقلع عما هو عليه من الباطل. مما يلزم الإنسان أن يتواضع للحق إذا ظهر له، ويتقبله ويأخذ به، وأن يتنبه لنفسه من الاستكبار وشره.

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١١٨/٢)

فيرد الله تبارك وتعالى على تمادي المشركين في الكفر وإنكارهم لاسم الرحمن ببيان يُظهر فيه عظيم مقامه سبحانه وتعالى، فيقول عَزَّ وجل عن ذاته العظيمة الكريمة ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ فانطلق البيان بالتعظيم والتمجيد لله تعالى ﴿ تَبَارَكَ ﴾ تبارك عطاؤه، وزاد وكثر. بما يفيد التعظيم والتقديس لذاته عَزَّ وجل. فهو بيان لكل من يسمع آيات الله تعالى. فبدأ الجواب بمثل ما بدأت به سورة الفرقان من تمجيد الله تعالى ببركاته وعظيم فضله وإحسانه ﴿ تَبَارَكَ ﴾ تبارك عطاؤه، وزاد وكثر. بما يفيد التعظيم والتقديس لذاته عَزَّ وجل، بما أفاض من الإنعام والخيرات على عباده، ومنها بعثت نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم، وبشخصه الكريم عليه الصلاة والسلام، بما اصطفاه من الرسالة، وبما أنزل عليه من الوحي، وأعظمه القرآن العظيم. فتبارك الله عَزَّ وجل.

فيذكر الله تعالى لعباده نعمة البروج ولشمس والقمر ومنافعها العظيمة ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ فَعَظُم الله تعالى الذي جعل لكم ما ترونه في السماء من البروج، أي: النجوم، ومنازلها، ومنها كذلك منازل الشمس. وتفيد دلالة البروج الظهور والبروز. وعَظُم سبحانه وتعالى بخلق الشمس لكم ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا ﴾ أي: الشمس المسرجة بنورها الأرض التي تعيشون عليها، فقد أزالت ظلمة الليل، كما تفضل عليكم بنعمة القمر في الليل ﴿ وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ الذي يُنير الأرض إذا طلع عليها. فلفت انتباههم إلى عظيم رحمته المتوافقة مع اسمه الرحمن جَلَّ جلاله، فرحمكم بهذه النجوم التي تعرفون بها الاتجاهات، وساعات الليل، والمواسم المختلفة. وكذلك الشمس التي أنارت لكم نهاركم، لتقضوا حوائجكم، وتمشوا وتدبوا في الأرض. وأنار لكم الأرض بالقمر المنير ليلاً، والهادئ في نوره، والمختلف في ضوئه عن نور الشمس، حتى لا تكونوا في ظلام دامس، ولتعرفوا به عدد السنين والحساب والأيام. فإنها نعمة تدل على الرحمة من الرحمن الرحيم. فكيف لا تأتمروا بما أُمرتم به، وتُطيعوا رسولكم الذي أُرسل إليكم هادياً ومبشراً ونذيرا. ومن دقائق البيان أن سَمَّى الله تعالى الشمس بالسراج الذي هو أقوى في شعاعه وضوئه، بينما سَمَّى القمر بالمنير، مضيئاً مشرقاً، لأنه لا حرارة لنوره، فليس فيه قوة شعاع الشمس، وحرارتها. وسمى النجوم بروجاً بصيغة الجمع لكثرتها وتنوع حركتها، ومواقعها فسبحان بديع السماوات والأرض.

ثم يذكر تبارك وتعالى نعمة أخرى مما يعايشونه من الآيات الباهرات الدالة على عظيم خلق الله تعالى، ورحمته بعباده فيما خلق ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ وربكم سبحانه وتعالى هو الذي جعل الليل يخلف النهار، والنهار يخلف الليل، ليفيد التعاقب

المستمر الذي لا ينقطع. فلفت الانتباه إلى عظيم تدبيره، وعظيم رحمته فيما خلق، وإبداع تنظيمه تنظيماً بديعاً، يدل على عظمته تبارك وتعالى، فأين أنتم من هذه الآيات، وهذا الإنعام، وهذه الرحمة؟ فإنها آيات وحجج ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ فإنها آيات وعلامات وحجج لمن أراد أن يتأمل ويتعظ، ويدرك أن هذا الخلق العظيم، وهذا التدبير والنسق القويم لن يكون إلا من خالق عظيم عَزَّ في علاه سبحانه وتعالى. وهي آيات بينات لمن أراد أن يشكر ربه عَزَّ وجل بالطاعة والامتثال على هذا الإنعام العظيم، فإنه هو الذي يعطي ويمنع، وهو الذي يدبر شؤون خلقه، وهو الذي يجب أن يُعبَد وحده لا شريك له. وأن هذا القرآن الذي حوى هذا البيان لا يمكن إلا أن يكون من عند خالق الخلق، ومدبر الكون. وأن محمداً رسوله صلى الله عليه وسلم، بما أتى من الآيات والبراهين والحجج العظيمة. فيجب الاستسلام لله تعالى، وكمال الطاعة والامتثال لما يأمرهم به رسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾
وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ
إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟
وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ
ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ
ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ
مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

ثم ينتقل السياق الكريم من الله العزيز الحكيم إلى وصف عباده الذين اسماهم بعباد الرحمن، وخصهم بهذا الاسم الشريف العظيم ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ فقد أضاف سبحانه وتعالى هؤلاء المؤمنين إليه ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تشريفاً وتكريماً وعناية بهم من ربهم تبارك وتعالى، بما يفيد المدح والثناء. وخصهم بالرغم من أن جميع الناس عبيد له سبحانه وتعالى، ولكن المقصود بذلك أنهم المتصفون بالأوصاف المذكرة. التي أوضحها وبينها تبارك وتعالى. قال السعدي رحمه الله تعالى: العبودية لله تعالى نوعان: عبودية لربوبيته، فهذا يشترك فيها سائر الخلق، مسلمهم وكافرهم، فكلهم عبيد لله تعالى، مربوبون مُدبرون. وعبودية لألوهيته وعبادته، ورحمته، وهي عبودية أنبيائه

وأوليائه، وهي المراد هنا. ولهذا أضافها إلى اسمه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾[١] فهم عباد الرحمن الذي رضي الله عنهم وأرضاهم.

ثم تدرج البيان في ذكر صفاتهم، وابتدأ الوصف الكريم ببيان تواضعهم، الذي يظهر لغيرهم في مشيهم على الأرض ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ أي: بسكينة ووقار، فمشيهم خالي مِن التكلف، وخالي من الخيلاء والتَّصَنُّع. ولا يعني هذا مشي الضعف والانكسار، بل المشي الطبيعي، الذي انتفت منه مظاهر الخيلاء والتكلف. وتجلت فيه السكينة والوقار. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا مشى كأنما ينحط من صبب. وكأنما الأرض تُطوى له. وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع[٢] ويشمل هذا بُعدَهُم عن السفه والبطر، بل تكسوهم العفة والرفق واللين. فدلالة الهون ﴿هَوۡنٗا﴾ تعني الرفق واللين.

والصفة الثانية متعلقة بطريقة ومنهجية التعامل الخطابي مع السفهاء، عندما يتحدث الجهلاء معهم بما لا يليق، ولا يحسن ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ وإذا تكلم السفهاء معهم بما يكرهون من سفاهة القول، وسوء الأدب في الكلام. فإنهم لا يردون عليهم بمثله من السوء بل ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ أي: يردون عليهم بخير الكلام فيصونون ألسنتهم عن القول السيء، ويردون عليهم بالسداد من القول، وبالتالي يسلمون من الإثم، ويُعَلِّمُون غيرهم الصواب بالفعل والتطبيق، ويسلمون من جهل الجهلاء. قال النحاس رحمه الله تعالى عن دلالة ﴿سَلَٰمٗا﴾ ليس سلاماً من التسليم، وإنما هو من التَّسَلُّم. تقول العرب: سلاماً، أي: تسلُّماً منك، أي: براءة منك. وقال مجاهد رحمه الله تعالى: معنى ﴿سَلَٰمٗا﴾ سداداً[٣] أي: يقول للجاهل الكلام السديد الذي يدفعه برفق ولين، بما يُسَلِّمُه منه. مما يدل على أهمية الحكمة في التعامل مع الآخرين، ومنهم السفهاء، بأن لا يجاريهم في سفههم، بل يتجنبهم بالأسلوب الذي يدفع تماديهم وشَرَّهُم. وفي هذا بيان لمسلك عباد الرحمن، وبيان لمنهج الله تعالى في التعامل مع السفهاء من الناس.

والصفة الثالثة: متعلقة بعبادتهم لله سبحانه وتعالى في وقت النوم والراحة من الليل ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ فإضافة إلى ما سبق من الوصف فإنهم لا يفوتون الليل من غير

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٤٤٩-٤٥٠)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٣٧)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣/٤٧)

صلاة، يصلون فيه ما تيسر لهم، مما يدل على فضل صلاة الليل. قال ابن عباس رضي الله عنهما: من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء، فقد بات لله ساجداً وقائماً. وقال الكلبي رحمه الله تعالى: من أقام ركعتين بعد المغرب، وأربعاً بعد العشاء، فقد بات ساجداً وقائماً[١] وفي قوله تعالى ﴿يَبِيتُونَ﴾ أي: وقت الليل، الذي هو وقت المبيت، يُصَلُّون لله تعالى. والمبيت هو إدراك الليل. والبيتوتة هي أن يدرك الليل، نام أو لم ينم. قال الزجاج رحمه الله تعالى: من أدركه الليل فقد بات. نام أو لم ينم[٢] وذكر سبحانه وتعالى الصلاة هنا بركنين عظيماً، وهما ﴿سُجَّدًا﴾ الذي هو مظهر التذلل لله تعالى. والركن الآخر هو ﴿وَقِيَامًا﴾ وهو الوقوف في الصلاة لقراءة الفاتحة، وما تيسر من القرآن. وفي تقديم السجود على القيام لأنه الأظهر في دلالة الصلاة، ولما فيه من التذلل لله تعالى. مما يبين فوائد ومقاصد التقديم والتأخير في القرآن الكريم.

والصفة الرابعة: متعلقة بخشيتهم وخوفهم من عذاب النار، فبالرغم من اجتهادهم في العبادة إلا أنهم يخافون الله تعالى، فيدعون ويرجون من ربهم تبارك وتعالى أن يصرف النار عنهم ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ فمع اجتهادهم في عبادة الله تعالى فإنهم يسألون الله عَزَّ وجل أن يصرف عنهم عذاب جهنم ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ فادفع عنا يا ربنا عذاب جهنم، بأن تجنبنا الأسباب الموصلة والمؤدية إلى عذابها، وأن تغفر لنا ذنوبنا التي تؤدي بنا إلى عذاب جهنم.

ثم يصفون معرفتهم لجهنم، ولما يكون لأصحابها ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ فإن عذابها ملازم لأهلها، غير مفارق لهم. وفي تسمية عذابها بدلالة ومعنى ﴿غَرَامًا﴾ ما يفيد الملازمة والديمومة. قال الحسن: قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم. وقال الزجاج: الغرام: أشد العذاب، وقال ابن زيد: الغرام: الشر. وقال أبو عبيدة: الهلاك. والمعنى واحد[٣] مما يفيد أن عباد الرحمن يتصورون جهنم وأهلها، ويخافون عذاب الله تعالى، ويرجون ويطمعون في رحمته، فيجمعون بين الخوف والرجاء. فالخوف يمنع التمادي في التقصير، وفي المعاصي، ويدفع لكثرة الاستغفار والتوبة. والرجاء: أمل وطمع في رحمة الله تعالى، وأنه غفور رحيم جَلَّ في علاه. فيدفعهم ذلك إلى مزيد العبادة والطاعة.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٩/١٣)
(٢) الشوكاني، فتح القدير (٨٦/٤)
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٩/١٣)

ويزداد تضرعهم لربهم تبارك وتعالى بتوصيفهم للنار، وتعليل رجائهم ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ فيذكرون شدة حاجتهم وتضرعهم لربهم جَلَّ جلاله، بمزيد التوصيف الذي يبين أنه لا قدرة لهم عليها ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ فبئس المستقر والمقام الذي يكون قراراً لأهلها، فساءت موضعاً لمن يستقر فيها، ولمن يقيم فيها. اللهم اجعلنا ممن اتصف بصفات عباد الرحمن، وأن تجعلنا من أوليائك المتقين، برحمتك وفضلك وكرمك يا رب العالمين، وأرحم الراحمين.

والصفة الخامسة: متعلقة بالعدل في النفقة ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ فمن صفاتهم العدل في التعامل مع مسارات الإنفاق المختلفة، فحين ينفقون مما يملكون من المال وغيره، فإنهم يلتزمون الوسطية، وهو مقام العدل، الذي لا يميل إلى الإسراف ﴿لَمْ يُسْرِفُواْ ﴾ بمجاوزة الحد في الإنفاق عن الحاجة، إلى درجة التبذير، وفي المقابل لا يميلون إلى الطرف الثاني من الإنفاق الذي هو التقتير ﴿وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ وهي الحالة التي يصل فيها الإنسان إلى الامتناع عن واجب الإنفاق، بالإمساك إلى درجة التضييق، نتيجة البخل والشح.

ودلالة الإنفاق ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ تشمل النفقات الواجبة، والمستحبة، كما أنها وردت عامة، لتشمل إنفاق الإنسان على النفس فيما ترغب وتحب، وتحتاج إليه، وكذلك تشمل النفقة على من تجب عليهم النفقة، كالأهل، وتشمل كذلك النفقة في أوجه البر المختلفة. فيلتزمون بعدم التقتير ﴿وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ فلا يدخلون في باب الشح، والبخل، كما لا يدخلون في باب الإسراف والتبذير. وقد ذكر بعض العلماء أن من الإسراف الإنفاق في المحرمات والمكروهات، فإنه يدخل في الإسراف. وكذلك منع حق الله تعالى يدخل في الإقتار كذلك. قاله: ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن جريج[1]ومن قوة سياق النص ورحابته مراعاته للفروق بين حاجات وقدرات الموصوفون بهذا الوصف، وهم عباد الرحمن، سواء من حيث العدد، أو من حيث الكمية، أو من حيث النوع الذي يتباين فيه الناس من حيث القدرة، واختلاف المجتمعات فيها، ولكنهم يتوافقون من حيث تحريرهم وإدراكهم للعدل الذي هو ﴿قَوَامًا ﴾ بين الإسراف، وبين التقتير.

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٣)

وكان منهجهم في الإنفاق هو الوسطية؛ التي هي بين الإسراف والتقتير ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ فكانوا بين هذين الصنفين عدلاً، وهو ﴿قَوَامًا﴾ أي: الاستقامة والعدل في الإنفاق. وبالتالي لا لا يتجاوزون إلى حد التبذير فيدخلون في الإسراف، ولا يقصرون في حق أنفسهم وأهليهم وعموم الإنفاق، فيدخلون في حد التقتير، بل نفقتهم عدلاً وسطاً، بما يدل على مراعاتهم لمنهج الله تعالى الذي يضبط سلوك المؤمن وفق ضابط العدل. وهذ يفيد ويدل على محبة الله تعالى لمن تجنب الإسراف والتقتير في النفقة، كما يدل على منهج الإسلام في الوسطية، فلا يحرم الإنسان من الطيبات، ولا يشجعه على التبذير. بل يُوجِب على المؤمن أن يكون عدلاً.

وبعد أن ذكر الله تعالى ما وصفهم به من الطاعات، شرع في بيان اجتنابهم للمعاصي والمفاسد. فالصفة السادسة: متعلقة بتجنبهم الشرك، وتحقيق توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة. كما تضمنت هذه الآية الكريمة الصفة السابعة: المتعلقة بصيانة الأنفس، وعدم قتلها بالتعدي عليها، والصفة الثامنة: متعلقة بحفظ وصيانة الأنفس من الزنا. فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ فإضافة على ما سبق من الأوصاف الحميدة السابقة، فإن عباد الرحمن متصفون أيضاً بأنهم مُوحدون لله تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ فلا يدعون معه غيره، فيشركون به غيره، بل يوحدونه، بإفراده بالعبادة، وبأنه هو الواحد الأحد، الفرد الصمد. فلا يشركون مع الله تعالى إلهاً آخر، بل يخلصون لله تعالى الدين كاملاً، حنفاء غير مشركين به عَزَّ وجل. فيؤمنون بأن الله تعالى مالك الملك وحده، وهو رب كل شيء ومالكه، وأنه المتفرد بالعبودية، ولا تستحق ولا تُصرف العبودية إلا له وحده لا شريك له.

والصفة السابعة: بُعدهم وتباعدهم عن قتل الأنفس ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فإنهم يمتنعون عن قتل النفوس التي حرم الله تعالى قتلها، كقتل المؤمن للمؤمن، وقتل المعاهد، وقتل المسالم من الكفار، ثم استثنى ما يجب فيه القتل شرعاً ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: بما يحق أن تُقتل به النفس، كقتل النفس بالنفس، وكحد الزنا للمحصن، وغيرها مما استوفتها كتب الفقه. وفي هذا بيان لعظمة شريعة الله تعالى في حفظ الأنفس، وحفظ الدماء، وحفظ الاعتداء على الغير بغير حق. فمدح وأثنى على أصحابها، وأنها من واجبات من أراد أن يكون من عباد الرحمن الذين خصهم سبحانه وتعالى بالثناء العظيم، والإكرام الجزيل. مما يدل على أن هذا الدين، هو دين الأمن والأمان، بحيث يأمن غيره منه، ويأمن هو على نفسه من غيره، عندما يعيش بين المؤمنين.

ثم ذكر سبحانه وتعالى الصفة الثامنة: وهي الزنا ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ فيحفظون فروجهم عن الزنا. باجتنابه، واجتناب ما يؤدي إليه. وبالتالي تُحفَظ الأنساب، وتُحفظ البيوت، ويأمن الجار بوائق جاره، ويدوم الأمن والاستقرار، والتواد بين العباد، ويزول ما يتخوفون منه. فإنه دين عظيم من كل وجه.

ثم يذكر سبحانه وتعالى جزاء من يفعل شيئاً من تلك الثلاث المذكورات، فإنه يلقى عند ربه العقاب الذي يناسب فعله وجرمه ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ فمن يفعل شيئاً من ذلك سيجد من الله تعالى ما يستحقه من الجزاء. واسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ يعود على الثلاثة التي يمتنع عباد الرحمن عن فعلها: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ أي: الشرك، وقتل النفس التي حرم الله تعالى، وفعل الزنا. فمن يفعل واحدة منها أو أكثر، فسوف ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والآثام في كلام العرب: العقاب[1] فإن فاته عقاب الدنيا؛ فلا يعتقد أنه سيفوت من عقاب الله تعالى في الآخرة. وفي هذا التهديد والوعيد ما يُحيي في النفس المؤمنة الرقابة الذاتية، والخوف والحذر من الوقوع في شديد العقوبة. كما أن هذا الترهيب بالتهديد والوعيد يغرس في المؤمن قوة الإرادة التي تجعله يمتنع ويتمنع عن المحرمات. ويجاهد نفسه حتى عن الأسباب التي تُؤدي وتُوقِع المؤمن فيها. ومن شدة التحذير أن الله تعالى أتبع هذا الوعيد بوعيد آخر ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ فإن الله تعالى يضاعف له العذاب، يوم القيامة ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فلم يحدد تبارك وتعالى مقدار المضاعفة، لتكون أقوى تحذيراً وتهديداً، فعذاب الله تعالى شديد، فكيف إذا تضاعف على العبد.

بل ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ فيخلد في هذا العذاب وهو في أشد الإهانة. فاشتمل شأن العقوبة على الخلود وعلى الإهانة النفسية، فيجتمع عليه العذاب الحسي؛ البدني، والعذاب النفسي. كما يدل بيان النص الكريم على أن العذاب البدني عذاب دائم، ومشتمل أيضاً على العذاب النفسي ﴿ مُهَانًا ﴾ أي: ذليلاً وحقيراً، ومنكسر الفؤاد. مما يدل على شناعة ما هم فيه من الحال، وسوء العقاب والعذاب. والخلود في العذاب باعتبار الشرك، لأن المشرك خالد في العذاب، أما الزنا والقتل فلا يخلد صاحبه في النار، وله عذاب شديد. قال السعدي رحمه الله تعالى: فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلها، ثابت لا شك فيه. وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة، لكونها إما شرك، وإما من كبائر الكبائر. وأما خلود

(١) الشوكاني، فتح القدير (٨٨/٤)

القاتل والزاني في العذاب؛ فإنه لا يتناوله الخلود، لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن، ولو فعل من المعاصي ما فعل[١] ونسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة، وأن يصرف عنا ما حرمه على العباد، ويصرف عنا عذاب النار وجميع أنواع العذاب.

ومن رحمته بعباده عَزَّ وجل أنه يستثني التائبين ممن وقع في هذه المحرمات، أو في شيء منها، بهجرها وتركها، وإثبات صدق توبته بأداء الأعمال الصالحة. فقال تعالى ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فبرحمته تبارك وتعالى، أنه يتوب ويغفر لكل من تاب، مهما بلغت ذنوبه، وكانت معصيته، فاستثنى من العذاب من اتصف بأمرين: الأول: التائبين ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ وهو الذي يجمع بين الندم على ما كان من المعصية، والإقلاع عن المعصية، والعزم على أن لا يعود إليها. فتشمل حال واقعه، وماضيه، ومستقبله. وثانياً: أن يُثبت ذلك بمسلك الصلاح ﴿ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ فيؤمن الإيمان الصادق، والعمل بدين الله تعالى، الذي هو العمل الصالح، والذي تمثله شريعة الله تعالى ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍ ﴾ فالذين قاموا بالتوبة والعمل الصالح فإن الله تعالى يبدل سيئاتهم حسنات. فمن كرم الله تعالى عليهم أنه لا يمحو ذنوبهم فقط، بل يبدلها إلى حسنات. وفي هذا دليل على رحمة الله تعالى وكرمه وجوده، وأنه يريد لعباده الجنة، ولا يريد لهم النار، وأنه رحيم ودود سبحانه وتعالى. بما يبين عظيم رحمة الله تعالى، وعظيم مغفرته لكل من أذنب وتاب ورجع إلى الله تعالى بالطاعة والامتثال.

ثم يؤكد عَزَّ وجل ذلك الوعد بما اتصف به من المغفرة والرحمة ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فإنه جَلَّ في علاه متصف بالمغفرة وبالرحمة، فمن كانت هذه صفته فإنه يغفر لمن تاب وآمن وعمل بشريعة ربه تبارك وتعالى. بل من رحمته أنه دعاهم للتوبة، بعد معاندتهم بالشرك والمعاصي والذنوب. مما يستوجب محبته، وطاعته، والتوبة عند حصول المعصية. وهي نعمة عظيمة جليلة. فاللهم اغفر لنا وارحمنا، وتوب علينا، ووفقنا لعمل الصالحات على الوجه الذي يرضيك عنا، فإنك أنت الغفور الرحيم. وقد ورد بيان المغفرة والرحمة بأسلوب الإثبات الأزلي، بحرف ﴿ وَكَانَ ﴾ فعل ماضي، مفاده أن المغفرة والرحمة صفة ثابتة لله تعالى، وليست حادثة. بل إنها صفة من صفاته الكريمة المتعاقبة والمتتالية. فعليكم بأن تطلبوها وتستقيموا وفق ما شرع. فالحمد لله رب العالمين على مغفرته ورحمته وفضله وهدايته.

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٤٥١-٤٥٢)

ثم يبين ويؤكد سبحانه وتعالى دلائل التوبة الصادقة ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ فإن إيقاع التوبة على الوجه الصحيح: يستوجب تأكيدها حقاً، بلزوم العمل بما فرض الله تعالى وأمر، وشرع في شريعته عَزَّ وجل ﴿ فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ فإن عليه أن يؤكدها حقاً؛ برجوعه إلى ربه الرجوع الصحيح، المتمثل في لاستجابة الكاملة، من الندم والإقلاع عن الذنب، والعزم على عدم العودة إليها. فإنه بذلك المسلك تكون توبته إلى الله متحققة. وقد تضمن التوجيه الكريم اشتراط الإخلاص له سبحانه وتعالى في التوبة النصوح ﴿ فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فتكون التوبة لله تعالى، وليس لغرض آخر. أي: إخلاصاً لله عَزَّ وجل، ومجرداً عن كل شائبة. ثم أكدها عَزَّ وجل بقوله ﴿ مَتَابًا ﴾ أي: تاب حق التوبة. قولاً، وعزيمة، وإرادة، مُوَثَّقَة بعمل الصالحات، خالصة لله عَزَّ وجل. مما يفيد أن المتلاعب بالتوبة مفتقر إلى هذا المسلك الذي أوضحه وبَيَّنَهُ تبارك وتعالى في صفات عباد الرحمن. ولكي يعرف التائب صحة توبته، فيتأمل هل حاله كما كان أو أنه أقلع عن ذنبه وعمل بالصالحات الخالصة لله عَزَّ وجل. وهذه غاية الدقة في البيان والتوضيح المبين.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾

ثم يذكر تبارك وتعالى الصفة التاسعة لعباد الرحمن، وهي متعلقة بامتناعهم عن حضور أماكن الباطل.

ثم الصفة العاشرة، المتعلقة بمسلكهم عند مرورهم باللغو. فقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ فمن صفات عباد الرحمن: أنهم لا يحضرون أماكن الأفعال والأقوال المحرمة. فكلمة ﴿ لَا يَشْهَدُونَ ﴾ تعني وتدل على المعاينة بالحضور. ولذلك قيل هي حضور ما لا يجوز. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: قيل: هو الشرك، وعبادة الأصنام، وقيل الكذب، والفسق، واللغو، والباطل. وقال محمد بن الحنيفية:

هو اللهو والغناء[١] ويدخل في ذلك شهادة الزور، لأنه من الكذب، والبهتان. فشملت كل ما لا يجوز حضوره بالاستماع أو بالمشاهدة، أو بالقول، أو بالفعل.

ومن صفاتهم التي هي الصفة العاشرة ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ فإذا جاء مرورهم على مكان فيه لغو، وهو: السفه والعبث من الكلام الذي لا نفع ولا خير فيه، فإن مرورهم يكون متصفاً بالترفع عنه ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ فيكرمون أنفسهم ومسامعهم وألسنتهم عن العبث الذي لا نفع ولا خير فيه، بتجنبه، وعدم الوقوف عنده، وعدم الجلوس مع أهله. فيتنزهون ويتسامون عن ذلك بمكارم التنزه وجميل الأخلاق. مما يفيد أن عباد الرحمن يتنزهون عن الخصال الذميمة، بل لا ينشغلون بما لا فائدة فيه، ويترفعون عنه معزة لأخلاق الإسلام، وإكراماً لأنفسهم، وبُعداً عما قد يؤدي إلى الانزلاق في المحرم. فيعطي الله تعالى بهذا الوصف ما يجب أن يكون عليه المؤمن الذي يريد أن يكون من عباد الرحمن. وفي هذا حث بأسلوب الاشتراط حتى يُباعد المؤمن نفسه عن هذه الأماكن والمجالس، وكذلك هو بأسلوب الحث على الاقتداء بمن اتصفوا بمنقبة عباد الرحمن.

والصفة الحادية عشر، متعلقة بحين استماعهم لمواعظ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ والذين إذا وُعِظُوا بآيات القرآن الكريم، وبسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، فإنهم لا يقابلونها بالإعراض، كشأن وحال اللاهين عنها، وحال من لم يسمعها، ولم تشهدها قلوبهم وأعينهم. بل شأنهم هو الانكباب عليها سماعاً وتبصراً وتأملاً وتفكراً، بما يفيد الإقبال على آيات الله تعالى حينما يُوعَظُون بما فيها من الوعظ، ويستمعون إليها استماع المعني والمعتني والمهتم والمنتفع بها. وبأعين وآذان مشدودة لما يسمعون، اهتماماً بها.

وقد ورد التذكير بصيغة من لم يُذكر فاعله ﴿ذُكِّرُواْ﴾ ليستوعب جميع مصادر التذكير، سواء من إنسان يذكرهم، أو عند سماعها تتلى من القرآن، أو من السنة، أو هو يقرأها من كتاب الله تعالى، أو من كتب السنة، أو من كُتب الوعظ، أو من أي مصدر، فهو يتفاعل معها. ولم يحدد سبحانه وتعالى نوعاً محدداً من آيات الله تعالى ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ لتستوفي جميع أنواع الآيات. مما يعلم المؤمن كيف يكون حاله حين يسمع مواعظ الله تعالى حين تتلى عليه، فإن واجبه أن يهتم بها، فيفهمها ويعيها، ويعتني بتطبيقها. وفي هذا مدح وثناء لمن اتصف بهذه الصفة. وفيها ذم لمن تغافل عنها، وانشغل بغيرها عنها، كحال الكافر والمنافق واللاهي عن ذكر الله تعالى، والمنشغل باللغوي عن مصالحه الحقيقية.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٤١/٣)

ومن دقائق البيان الكريم أن وصف الإقبال عليها بتبشيع ما يضادها من التصرفات، وهو الخرور عنها ﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا ﴾ أي: أنهم إذا ذُكروا بها أكبوا عليها، حرصاً على استماعها، وأقبلوا على من يذكرهم بها. ولم يخروا عنها بالتباعد والإعراض وصرف القلب والسمع عنها، بل إذا ذُكِّروا بها أكبوا عليها، حرصاً على استماعها، وأقبلوا على من يذكرهم بها، لأن الخرور أكثر أثراً، فالخرور هو السقوط والوقوع اختلالاً. وفي ذلك تعريض لمن خر عنها، بالتباعد عنها، فشأنه مضاد لشأن عباد الرحمن الذين يَنْكَبُّون عليها. فلم يكن حالهم هو حال من تباعد عنها، وحالهم كحال من سقط اختلالاً. لأن الخرور هو الوقوع والسقوط، وبما يعني كذلك أنهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً، بل خروا عليها حباً وشوقاً واتعاظاً بما فيها. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: أنهم إذا ذُكروا بها أكبوا عليها، حرصاً على استماعها، وأقبلوا على المذكر بها[١] وفي هذا دلالة على قوة بناء السياق، ليستوفي كمال الوصف بأدق البيان والهيئة، وأفصح السياق.

والصفة الثانية عشر: الدعاء والرجاء من الله تعالى أن يهب لهم من أزواجهم وذرياتهم ما تقر به نفوسهم. والصفة الثالثة عشر، أن يتصفوا بالطاعة لربهم، فيكونوا قدوة لغيرهم، فينالون أجر من اقتدى بهم من الناس. فقال الله تعالى عنهم ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ فمع ما هم عليه من الاتصاف بالخصال الحميدة مع ربهم، وفي أخلاقهم، وتعاملهم مع غيرهم، وتجنبهم لما يغضب الله تعالى، وزهدهم عن اللهو؛ فإنهم يجتهدون في الدعاء والتضرع إلى الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ يطلبون من ربهم في تضرع وتذلل أن يعطيهم من زوجاتهم وأولادهم صفات الأبرار، الأتقياء، الصالحين، فتقر بهم أعينهم. فليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لربهم تبارك وتعالى، وأبراراً في تعاملهم، ولا يأتون عليهم بما يزعجهم، ويكدر خواطرهم، فتقر أعينهم بهم في الدارين: في الدنيا وفي الآخرة. فاجعلهم لنا ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ فتكون مُحَصِّلَة للسعادة التي تقر بها العين.

ومن جميل البيان وعمق دقته أن ورد الزوج والأولاد بصيغة الجمع ﴿ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا ﴾ فالجمع في ﴿ أَزْوَٰجِنَا ﴾ يستوفي الزوج وكل زوجة، سواء كان داعياً وطالباً من الله تعالى، أو كان مَدْعُو له، وتستوفي كذلك تعدد الزوجات. وتستوفي التعظيم كما هو في حق المرأة في دعائها، بأسلوب الجمع الذي يفيد التعظيم، لأن ليس لها إلا زوج واحد، وكذلك من ليس له إلا زوجة واحدة. كما أن الجمع في الذرية

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٣/٢٩٤)

﴿ وَذُرِّيَّـٰتِنَا ﴾ تستوفي جميع الأولاد من البنين والبنات، وجميع النسل المتعاقب. ووردت لفظة ﴿ قُـرَّةَ ﴾ مفردة، لأنها معبرة عن جنس الاستقرار، ومعبرة عن راحة النفس بهم جميعاً، وأن قرة العين لا تتبعض، وإنما تتحقق بتكامل موجباتها. فوردت مجتمعة بمفردة واحدة، وكأنهم جميعاً يُشكلون راحة النفس، فلا يغني أحدهم عن الآخر. بينما وردت ﴿ أَعْيُنٍ ﴾ بصيغة الجمع، لتعدد الأوجه، فمن كل وجه هم قرة أعين، في عبادتهم، وفي برهم، وفي أخلاقهم، وفي جميع أحوالهم، بأنهم مصدر سرور وغبطة كلما اتجهت لهم العين. فيجد في قلبه ما يرضيه بهم. وهذا من بلاغة الإعجاز البياني في القرآن الكريم، الذي يعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو اجتمعوا واتحدوا على ذلك.

ثم سألوا أمراً عظيماً يمثل الصفة الثالثة عشر ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ واجعلنا يا ربنا قدوات، وأسوة، يقتدي بنا غيرنا في توحيدنا لك، وفي إيماننا وعبادتنا، وأخلاقنا، بل جمعت صفة ودلالة ﴿ إِمَامًا ﴾ جميع المحامد من الأقوال والأفعال وجميل الأوصاف. بل ومن رفعة المقام والطلب منهم إلى ربهم تبارك وتعالى، أن سألوا: بأن يكونوا قدوات للمؤمنين الذين علت رتبتهم، وهم أهل التقوى ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ فهم قدوات لأعلى درجة المؤمنين، وهم المتقين. فإذا كانوا قدوة وأسوة للمتقين، صاروا أكثر قدوة لمن هم أدنى من المتقين، بل صاروا قدوات لعموم جنس الإنسان، مسلمهم وكافرهم. فسألوا الله تعالى أعلى الرتب والمنازل في طاعته عَزَّ وجل. فمن كان للمتقين إماما فقد حاز أسمى وأعلى رتب الطاعة لله تعالى: إيماناً وعبادة وخلقاً. فهو دعاء عظيم، يستوفي الكمال، وتتحقق به سعادة الدارين. فنسأل الله تعالى بما قاله الله جَلَّ جلاله عنهم ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُـرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ بفضلك ومَنِّكَ وكرمك يا رب العالمين، أن تعطينا هذه الرتبة العظيمة الشريفة.

وقد ربط السياق الكريم بين تعدد صفات عباده بالاسم الموصول ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ الذين سماهم عباد الرحمن، مع تكرار الاسم الموصول؛ ليقترن بكل صفة من صفات حالهم التي هم عليها، وفي ذلك إظهار وإبراز وتأكيد لتلك الصفات، واطماع للمؤمنين ليلتزموها حتى يكونوا من عباد الرحمن، الذين أثنى عليهم سبحانه وتعالى، وأعد لهم أجراً عظيما.

ثم يخبر الله تعالى عن الجزاء العظيم لمن كان بتلك المواصفات التي هي صفة عباد الرحمن ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴾ فجزاؤهم ﴿ ٱلْغُرْفَةَ ﴾ أي: الجنة،

وما فيها من الغرف الجميلة والوسيعة، التي اجتمع فيها كل ما تشتهيه الأنفس، وتلتذ به الأعين والسمع. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني الجنة. وقال غيره: الغرفة: كل بناء عال مرتفع، والمراد غرف الجنة، وهي من الزبرجد والياقوت(١) وقد ذكر سبحانه وتعالى علة وسبب هذا الجزاء، فإنه ثواباً لهم ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي صبرهم على طاعة الله تعالى، ومقاومة الشهوات، ومقاومة المغريات، فصبروا على طاعة الله تعالى، وعن معصية الله عَزَّ وجل فتحقق لهم كريم الجزاء. مما يدل على أهمية ومنزلة الصبر في التحلي بأوصاف عباد الرحمن، فهناك صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر في مجاهدة النفس لجميع أحوالها، إخلاصاً لله تبارك وتعالى.

ثم يذكر تبارك وتعالى ما يجدونه في الجنة، من كريم التحية، وجميل المعنى والدلالة ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ ويحييهم ربهم بالسلام، وتحييهم الملائكة الكرام بالسلام، ويحيون بعضهم بعضا بالسلام، وهي تعني أيضاً: البقاء الدائم، والسالم من كل مزعج، فليس في الجنة إلا السلام.

ثم يذكر تبارك وتعالى صفة هذا الجزاء العظيم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ خالدين فيها خلوداً أبدياً، فلا يخرجون من هذا النعيم، بل لهم الخلود الذي لا يزول ولا يحول ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في تلك الغرف من الجنان والنعيم المقيم. ثم يؤكد ذلك سبحانه وتعالى بالمدح والثناء لهذا الجزاء العظيم ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ فحسنت موضعاً يستقرون فيه عباد الرحمن، ومقاماً دائماً يقيمون فيه. اللهم اجعلنا ممن اتصف بصفات عباد الرحمن، وأن تجعلنا من أوليائك المتقين، الذين يحظون بهذا الإكرام العظيم برحمتك وفضلك وكرمك يا رب العالمين، وأرحم الراحمين.

ثم يتجه الخطاب إلى الناس عموماً، مع تخصيص المعاندين المكابرين من الكفرة والمشركين، فيخبر الله سبحانه وتعالى عن غناه عنهم، فإنه عَزَّ وجل لا يبالي ولا يعبأ بأحدٍ من خلقه، لأنه لا حاجة له فيهم ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾ يوجه الله تبارك وتعالى الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول: إن ربكم لا يبالي ولا يعبأ ولا يكترث بكم أيها الناس إذا لم تعبدوه وتوحدوه، لأنه غني عنكم ﴿لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ﴾ والدعاء هو العبادة. فلولا عبادة المؤمنين، وتضرعهم لربهم. بما يفيد لأهلككم جميعاً أيها الكافرون المعاندون. بما يدل على فضل إيمان وعبادة المؤمنين على غيرهم من الكفرة والمشركين. ففيه رفع مكانة ومنزلة المؤمنين عند ربهم عَزَّ وجل. وفيه تنديد وتحقير للكافرين، بأن الله عَزَّ وجل

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨/٦)

لا حاجة له بهم، بل لا يعبأ ولا يبالي ولا يكترث بهم، فليس لهم وزن ولا ثِقل ولا مكانة حتى ينتظروا من الله تعالى خيراً خاصاً بهم. فلا حاجة لله عَزَّ وجل في إسلامهم وعبادتهم، بل هم المحتاجون لربهم تبارك وتعالى. بل لولا المؤمنون بعبادتهم لربهم لأهلك الجميع. قال الشوكاني رحمه الله تعالى ما ملخصه: إن ربكم غني عن طاعة الكل، وإنما كلفهم لينتفعوا بالتكليف. وأن الخطاب لجميع الناس، ثم خص الكفار منهم ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ ثم قال سبحانه وتعالى ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أي: فسوف يكون جزاء التكذيب لازماً لكم. وجمهور المفسرين على أن المراد باللزام هنا: ما لزم المشركين يوم بدر، وقالت طائفة: هو عذاب الآخرة[١] وفي هذا إخبار من الله تعالى بأن العذاب ملازم وملاصق لمن كفر؛ سواء كان في الآخرة، أو جمع الله تعالى لهم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. وفي هذا تحذير وترهيب وتنبيه وبيان لهم بأن يعودوا إلى رشدهم بالإيمان والتوحيد لربهم، وبكمال الطاعة التي أمرهم بها ربهم عَزَّ وجل. وهذا البيان دلالة على رحمته جَلَّ جلاله بالعباد، إذ يحذرهم، ويبين لهم الحقائق، وما سيكون عليه حال كل عاص لرسوله صلى الله عليه وسلم.

تم بحمد الله إتمام سورة الفرقان، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٩٠/٤)